

تفسير جزء تبارك

وهو الجزء التاسع والعشرين من الكتاب الكريم

تأليف العالم الجليل

الشيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

قام بتصحيحه و علق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية

على محمد حسب الله

استاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأول بالقاهرة)

جميع الحقوق محفوظة للوزارة

المطبعة الاميرية بالقاهرة

١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

وزارة المعارف العمومية



تفسير حمزة تبارك

وهو الجزء التاسع والعشرون من الكتاب الكريم

تأليف العالم الجليل

الشيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

قام بتصحيحه وعلق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية

على محمد حسب الله

أستاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأول بالقاهرة)

حقوق الطبع محفوظة للوزارة

الطبعة الأميرية بالقاهرة

١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

فهرست المطالب الكبرى في هذا التفسير

صفحة

خطبة الكتاب وتضمن السبب في تأليفه	...
١ سورة تبارك (المُلْك)	...
السموات أو الأفلاك ، ولماذا اقتصر الوحي في خطاب البشر لذلك العهد على ذكر	...
٣ سبعة منها ؟	...
٥ معنى كون الشهب رجوما للشياطين	...
٧ معنى شهيق جهنم وفورانها وتميزها من الغيظ	...
١١ معنى كون الأرض ذلولاً للإنسان	...
١٣ معنى كون الله في السموات	...
قد يذكّر القرآن بعض الأباطيل لا لتقريرها بل على سبيل إرخاء العنان لمعتقدهم	...
١٣ ثم الرد عليهم	...
زلزلة الأرض وأمثالها من قوى الطبيعة تكون عقوبة للآمم الجاحدة التي تهلك بها	...
١٤ وإن كانت تحدث بأسباب طبيعية	...
١٨ طيران البشر لا يقل في التعجيب من قدرة الله عن طيران الطير	...
سمى القرآن العقل قلباً وإن كان العقل في الدماغ — مراعاة لأساليب التخاطب	...
٢١ في لغة العرب	...
٢٨ سورة ن	...
الحكمة في القسم بالقلم ، وأن المراد به مطلق أدوات الكتابة التي هي مقياس رقي الأمم	...
٢٩ امتنان الله على البشر بنعمة الكتابة بالقلم ، والاستدلال بذلك على نبوته صلى الله	...
٢٩ عليه وسلم	...
العقلاء الناصحون لا يفارقون قومهم حتى بعد نزول البلاء الذي كانوا نهوهم عنه	...
٤٦ الأولى أن يجعل كشف الساق وأمثاله من الكنايات في الكلام المعجز على نظائره	...
٥٢ في كلام بلغاء العرب	...
خبر يونس ، وما كان من التقام الحوت له ، والإيمان بذلك ، والمقارنة بين ما ورد	...
٥٩ من خبره في القرآن وما ورد من ذلك في الكتب القديمة	...

صفحة

٦٦	سورة الحاقة
٦٨	قبيلتنا عاد وثمود المذكورتان في القرآن، وما عرف عنهما في التاريخ القديم والحديث
٧٠	شروع عاد وثمود التي استحقوا بها الهلكة
٧٤	موجز في سيرة النبي لوط عليه السلام
٧٩	عرش الرب وحمل الملائكة له تصوير وتمثيل
٨٢	التقدير الواجب على المسلم اعتقاده بشأن كتاب الأعمال الذي يؤتاه بشماله أو يمينه
٨٢	يوم القيامة
٨٢	قوله تعالى لأهل الجنة "كلوا واشربوا" في مكافاتهم على ما أسلفوا من العمل
٨٤	الصالح - ليس مراداً به مجرد التمتع بالأكل والشرب ، وإنما المراد التمتع بكل ضروب اللذائذ من دون معارض ولا منغص والتنظير لذلك في لغة التخاطب
٨٨	صعوبة تعقل أمر العذاب والنعم في النشأة الثانية مع تحقق وجودهما ؛ إذ كثيراً ما يوجد في عالمنا الدنيوي ما يعسر على الإنسان تعقله مع القطع بوجوده ...
٨٩	تأليف الجمعيات لعمل البر وتوزيع الزكوات من تعاليم القرآن وأدابه الاجتماعية التي أرشدنا إليها
٩٥	جرت عادة الله أن يهلك المتنبيين ويميت أتباعهم ، أما بوذه وكنفوشيوس وزرادشت فلم يرد في الشرع ما ينفي نبوتهم ...
٩٥	الاستدلال على صدقه صلى الله عليه وسلم بثبات أمره وانتشار دعوته وظهور أثرها في ترقية شأن الاجتماع البشري ...
٩٥	كيف تغلبت المدينيات الحديثة على المدينيات الإسلامية وتكاد تقضى عليها مع صحة ما ذكرنا عن الدعوة المحمدية ...
٩٩	سورة سأل (المعارج)
٩٩	الملائكة وسائط اتخذها الحكيم الخبير لتدير أمر الكائنات ، ولا ينبغي أن نبحث عما ستر الله من أمرها ...
١٠١	وصف يوم القيامة بأنه ألف سنة مرة وخمسون ألف سنة مرة أخرى لم يرد به إلا المبالغة في وصفه بالطول . وكانت الصحابة تكره السؤال عن مثل هذا ...
١٠٢	إذا نسب القول في القرآن إلى ما لا يعقل ، فهو كلام بلسان حاله لا بلسان مقاله ...
١٠٧	نهى السلف أولادهم عن أن يتمنوا من نعيم الجنة أو يستعفوا من عذاب الآخرة في دعائهم بما لم يرد به الشرع ، وإنما يجب الاقتصار من أحوال الجنة والنار على ما جاء في صحيح الأخبار ...
١٠٨	ما جاء في صحيح الأخبار

صفحة

- استثنى القرآن من الإنسان الملعون ثمانى طوائف وهم الذين طهرت نفوسهم من خلق
 الهلع المذموم بما حافظوا عليه من أمهات الأخلاق التى هى خلاصة أصول الشرع ١١٠
 معنى الرق وتضييق دائرته فى الإسلام عما كانت عليه الحال فى الأمم القديمة ، وأنه
 والحرب الموصلة إليه ضرورتان تتجنبان ما أمكن تجنبهما ... ١١٢
 بيان أقسام تلك الأصول الخلقية الدينية ... ١١٣
 سورة نوح ... ١١٩
 خلاصة تاريخية من الأسفار القديمة عن أولاد آدم عليه السلام لا سيما نوحا
 عليه السلام ... ١٢١
 أول دعوة دينية عرفت فى البشر دعوة نوح عليه السلام لقومه ، وهى مؤسسة على
 ثلاثة أركان (الإيمان) و (التقوى) و (الطاعة) ... ١٢٢
 كل دعوة تعتمد فى ظهورها على ثبات صاحبها وجرأته فى عرضها ، وإلا فشلت
 وماتت بموته . ومدنية أوربا اليوم إنما هى أثر من آثار الثبات والحرية الفكرية ... ١٢٥
 كيف يكون إيمان قوم نوح به وسيلة إلى إمدادهم بالأموال والبنين والجنات
 والأنهار ؟ ؟ ... ١٢٧
 ما المراد بالأنهار التى خلق الله الخلق عليها ؟ ... ١٢٨
 التعجب من جعل القرآن القمر فى السموات وعدم جعله الشمس فيها ... ١٣٠
 التشابه بين عالمى النبات والحيوان ، وفى قوله تعالى "والله أنبتكم من الأرض نباتا"
 إشارة إلى وحدة النواميس الكونية والاستدلال بذلك على البعث ... ١٣١
 وثنية قوم نوح ، وطرائق عبادة الأوثان فى الأمم القديمة ، وكيف سد الإسلام
 الذرائع دون الرجوع إلى عبادتها ... ١٣٥
 دعاء نوح عليه السلام على قومه أولا وثانيا ليس هو دعاء انتقام وإنما هو إخبار
 عن استمرار مشيئة الله تعالى نافذة فى هذه الكائنات ... ١٣٧
 القدر الواجب علينا اعتقاده بشأن طوفان نوح عليه السلام ، وذكر شئ من
 خبر الطوفان ... ١٣٨
 هل أهلك الطوفان أطفال قوم نوح مع آبائهم ؟ وما السر فى إهلاكهم وإهلاك
 سائر الأطفال لا سيما من لم يبلغوا أشدهم ؟ ؟ ... ١٤١
 لعل فى دعاء نوح إشارة إلى أن الطوفان لم يكن عاما ... ١٤٣

صفحة

سورة الجن ١٤٥

- ما هؤلاء الجن الذين استمعوا القرآن منه عليه الصلاة والسلام ؟ والرد على ما ذهب إليه البعض من أنهم كانوا وفدا من البشر جاءوا من نصيبين كما جاء وفد نجران أول مغزى نفهمه من خطاب الجن لقومهم ألا تتخذ بما يقوله الرؤساء الملبسون من الأضاليل ، وزخرف الأباطيل ١٤٩
- المغزى الثانى من كلامهم أن الاستعاذة بالكهان من غائلة الجن وهم باطل ، وأن القرآن هو العياذ الحقيقى من هذه الأوهام ١٥١
- المغزى الثالث أن القرآن وضع حدا لدعوى الجن والكهان أنهم يعلمون غيب السماء فصرح الوحي بلسان الجن أنهم جميعا لا يدرون ما الله فاعل بأهل الأرض ١٥٣
- لا يعلم الجن الشر ولا الخير الذى يريده الله بالأمم ، ولكنه تعالى قدر على بعض تلك الأمم خيرا وعلى بعضها شرا . والتمثيل لذلك بما أصاب بعض الأمم ١٥٤
- كيف تكون الشياطين ممنوعة عن استراق خبز السماء بعد البعثة المحمدية بواسطة الشهب مع أن هذه الشهب كانت موجودة قبل البعثة ؟ والجواب على ذلك ، والتمثيل له بما جاء فى التوراة من جعل قوس قزح أمانا من الطوفان ١٥٤
- لماذا يكتفى العرب عن لين العيش وسعة الرزق بالماء الغدق ؟ ١٦٠
- إغداق النعم على الأمم دور فتنة وتجربة لها كما أن حلول المصائب والتقم بها كذلك . فما أجداها باليقظة والتدبر فى كلتا الحالتين ١٦٠
- ذكر الرب الذى ناط الله به نجات الأمم إنما هو ذكره تعالى بالعمل واتباع السنن لا ذكره باللسان فقط ، فإن هذا الذكر وحده لا أثر له فى إسعاد الأمم ١٦٢
- لا يعلم الغيب أحد من البشر . أما الغيب الذى ارتضى الله أن يطلع عليه بعض رسله فهو ما غاب عنهم من الشرائع المتعلقة بمصالح البشر وعمار الكون ١٦٨

سورة المزمل ١٧١

- قيام الليل وسائر التكاليف الشاقة إنما شرعت فى الإسلام لتكون الأمة من الوجهتين الجسمة والروحية تكوينا تقوى به على الثبات ومباشرة عظام الأمور فى قوله تعالى ” رب المشرق والمغرب “ إشارة إلى وحدة الكائنات فى الكنه والجوهر ، فيكون خالقها ذا وحدة حقيقية لا تعدد فيه ١٧٨
- النعمة والترف والانغماس فى الملذات مفسد لل عمران مؤذن بهلاك الأمم ١٧٩

صفحة

- هل تخراب العالم يوم القيامة يشمل الكواكب البعيدة غير المنظورة ؟ وهل عالم الحياة الآخرة يكون في هذه الكواكب البعيدة عنا ، أم في عالم ينشئه الله من العدم ؟ ... ١٨١
- جعل الولدان شيئا يوم القيامة مثل في عظم الخطب واشتداد الهول ... ١٨٣
- كلام فيما هو الاختيار الممنوح للعبد ؟ ... ١٨٥
- تنويه الوحي بالتجارة وتأثيرها في نشر الدعوة ... ١٨٩
- سورة المدثر ... ١٩٢
- معنى أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يظهر عقله ونفسه وجوارحه من الدنس — وهو طاهر منه — أن يدوم على الطهارة ، أو التبشير له بها ؛ ليزداد ثبات قلبه في الدعوة ، وذکر مثال لذلك ، ومعنى ” ووجدك ضالا فهدى “ ... ١٩٥
- لاتفتح دعوة مالم يتدرع القائم بها بشيئين : الصبر والسخاء ، والاستشهاد على ذلك بالتاريخ ، واستجماع هذين الخلقين في نفسه الشريفة صلى الله عليه وسلم ... ١٩٧
- ما النفخ في الصور ؟ وما النقر في الناقور ؟ ... ١٩٨
- ما معنى الامتنان على الوليد بن المغيرة في جعل بنيه شهودا ؟ ... ٢٠٠
- مشركو مكة استغربوا ما قاله القرآن من جعل خزنة سقر تسعة عشر . أما أهل الكتاب فلم يستغربوا ذلك لما فيه من الرمز المشابه لرموز كتبهم السماوية ، وذکر ما قاله علماء اللاهوت في ذلك ، ونقل شواهد من رموز الكتاب المقدس ... ٢٠٩
- إثبات أن للعبد إرادة واختيارا ، ومعنى إضلال الله من يشاء وهدايته من يشاء ، وإثبات أن القدر إن كان خفيا عنا فإنه مائل لأعيننا في السنن الكونية والمقومات الاجتماعية ، وأن إصلاح هذه السنن والمقومات داخل تحت قدرة الأمم الموفقة للعمل بأوامر الله تعالى ، وتصوير ذلك كله بأوضح عبارة ... ٢١٣
- جنود الرب كثيرة ومنها الملائكة . وبيان معنى هؤلاء الجنود والملائكة ... ٢١٩
- لا ينبغي أن يُسأل : لماذا كان عدد خزنة جهنم تسعة عشر لا أقل ولا أكثر ؟ وتصوير ذلك بشواهد وأمثال ... ٢١٩
- مسألة الشفاعة ، والقدر الواجب علينا اعتقاده بشأنها ... ٢٢٧
- القرآن هو معجزته صلى الله عليه وسلم . أما ما كان يقترحه المشركون من العجائب فقد كان الوحي ينههم عنه ، لأن البشر في زمن البعثة كانوا استعدادا لطور أعلى من أطوار الأمم القديمة الذين كانوا يحملون على الإيمان بتلك العجائب ... ٢٣٠

صفحة

- لا تناقض في قوله تعالى: "فمن شاء ذكره . وما يذكرون إلا أن يشاء الله" — لأنه تعالى لا يشاؤه إلا بالإجلاء والقهر ، ولم تجر عادته بذلك ، فسلم للإنسان مشيئته واختياره الذي هو عماد التكليف . وقد أبنا ذلك مفصلاً ... ٢٣٣
- سورة القيامة ... ٢٣٥
- في قسمه تعالى بالنفس اللوامة الناصبة في عبادته تعالى — إشارة إلى تحقيق يوم القيامة ؛ إذ لو لم يكن للإنسان المطيع في الدنيا مكافأة في الآخرة كانت البهائم أحسن حالاً منه ... ٢٣٦
- الخلاف في رؤية الله يوم القيامة ، وبيان أن هذا الخلاف لا طائل تحته ، وليس هو مما يرضى الله تعالى ، وحذا لو ترك المسلمون الخوض فيه وفي أمثاله تفادياً من التفرقة ... ٢٤٥
- قد يكون المراد بالراق عند العرب الطيب ؛ لأن الطب والكهانة والرياسة الدينية كانت تجتمع في شخص واحد في الأمم القديمة ... ٢٤٨
- موقف من مواقفه صلى الله عليه وسلم في دعوة العرب إلى دينه يحقق صدقه وأنه رجل لا كالرجال ، ومشروع إلهي لم يأت له الدهر بمثال ... ٢٥٣
- سورة الإنسان ... ٢٥٥
- خلق الله البشر ذوى أمشاج وطبائع مختلفة كما خلقهم أمماً متعددة ، ليم ابتلاؤه لهم ، وليتكامل عمرانهم ، وإيضاح ذلك ... ٢٥٥
- ما يأمر به الإسلام من الرحمة والرفق بالأسير غير المسلم ... ٢٦٠
- المراد بالوفاء بالنذر قوة الإرادة ، إذ أن النذر في أصل اللغة مطلق فعل ~~عز~~ عزه الإنسان وصمم عليه ، لا الصدقات بعينها . وعلى المفسر أن ينتبه إلى ما يطرأ على الكلمات من انتقال عن معناها اللغوي إلى معناها الشرعي ، ففي معرفة ذلك فائدة عظيمة للمفسر ... ٢٦١
- أسباب اللذوى في الجنة والبلوى في النار — هل هي حقيقة من عين ما نعهده في دنيانا ، أم أن الكلام عنها تصوير وتمثيل ؟ ... ٢٧٠

صفحة	سورة المرسلات
٢٧٦ اكتشاف ناموس الجاذبية العام يفسر معنى كون الأرض كفاتا للبشر
٢٨٧ معنى كون الجبال الروامى بمثابة أوتاد للأرض تمنعها من الميّدان والاضطراب . وللجبال منافع وفوائد أخرى .
٢٨٨ تشبيه شرر جهنم بالقصور والجمال مقترع من أحوال العرب ، وقد يستبعده من لم يتفطن إلى تلك الأحوال ، وإيضاح ذلك
٢٩١ أسباب العذاب وأدواته في جهنم — يقال فيها ما يقال في أسباب نعيم الجنة ووسائله : من أنه لا يمكن القطع بحقيقة الأمر فيها ، وأن العبرة من كل اعتقاد بالأثر البين في الأعمال ، لا تحريك اللسان بالأقوال
٢٩٤ ليس المراد من أمر المنعمين في الجنان بالأكل والشرب مجرد الأكل والشرب ، ولئلا المراد بإباحة كل أسباب النعيم لهم ، وتمتعهم منها بما يحبون ويشتهون ، وضرب مثل في ذلك
٢٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك ربنا مُنزلَ القرآن ، بحقائق الإيمان ، وجليلِ العبر . ومُنهم
الأذهان ، نواصع البيان ، ودقيقَ النظر . ونصلي ونسلم على سيدنا محمد
المبعوث بأكرم الأديان ، وقاطع البرهان ، من ولد مضر . صلاة وسلاما
يُجددان ما تجدد الزمان ، وتعاقب الملوك ، ولا حقر .

أما بعد ، فإن جزأى "عم" و "تبارك" من أكثر الأجزاء شيوعا بين
طلاب المدارس ، وتداولها بين عامة المسلمين وأيدى صغارهم . وآياتهما أشد
علوقا بالنفس ، وترديدا في الأفواه من سائر آيات الكتاب . فمن ثمَّ كانا
جديرين بأن يفسر كل منهما تفسيراً حسنَ الوضع ، صحيحَ الأسلوب ، يقربُ
من أذهان العامة ، ولا تتجافى عنه عقول الخاصة . فيقتصر فيه من القول
على ما يكشف الغموض عن الآيات من جهة اللغة والإعراب ، ثم يُشرح فيه
المعنى المتبادرُ شرحاً وسطاً مجرداً عن التنطع بالمشاغبات ، وإيراد الخلافات
والخرافات .

وقد وضع مولانا الأستاذ الشيخ محمد عبده رحمه الله - تفسيراً لجزء "عم"
توحي فيه هذا النمط والأسلوب ، بفناء من خير الكتب وفاءً بالغرض ،
وإصابة لمواضع الحاجة . فلا غرو إذا تناولته الألسنة بالثناء ، وتلقته القلوب
بالقبول .

وقد رغب إلى بعض الفضلاء في أثناء إقامتي بمصر بين سنتي ١٣٢٣ و ١٣٢٧ هـ (١٩٠٥-١٩٠٨ م) أن أضع تفسيراً لجزء "تبارك" أتوخى فيه طريقة أستاذنا الجليل فيما علقه على جزء "عم" من جهتي الصحة في التعبير ، والاقتصار على المفيد من القول ، فقلت له : بلغني أن الأستاذ رحمه الله قد فسر جزء "تبارك" وهو ما زال في تساويد مبعثرة محفوظة عند صديقه المرحوم "حسن باشا عاصم" .

وبعد البحث عن تلك التساويد ، علمنا أن الأستاذ لم يشرع في تفسير جزء "تبارك" بالفعل ، وإنما كان هياً صحائف بيضاء رَقَمَ في رؤوسها آيات ذلك الجزء ، وتركها غُفلاً من الكتابة ، على أمل أن يصطحبها معه في بعض أسفاره ، ويملاها تفسيراً وتعليقاً ، كما كان من أمره في تفسير جزء "عم" الذي أَلْفَهُ في غُضُون سفره إلى البلاد المغربية ، لكنه اخترمته منيته ، قبل أن تتحقق أُمْنِيَّتُهُ .

ثم كان ذلك الصديق الفاضل كلما زارني أو صادفتني سألتني عن التفسير وألح علي بالشروع فيه . فكنت أعتذر إليه بنقص الكفاية ، وصعوبة الأمر ، وفقد الأداة اللازمة لسلوك هذا الطريق الوعر ، ولا سيما أن تفسيري لجزء "تبارك" لا ينظر إليه الناظرون لذاته ، ومن حيث نسبته إلى صاحبه ، وإنما تتعمد فيه الموازنة بينه وبين ما كتبه الأستاذ على جزء "عم" ، فينحط قدره في عيون القراء ، ويُسَخُّ ظلامه بالضياء ، وبضدها تميز الأشياء .

ثم ضَرَبَ الدهر ضربانه ، فكان من أمره أن نزلت دمشق أول سِنِي الحرب الأولى نزولا حسبته لِمَا ، فإذا هو قد استتلى شهورا وأعواما . فتجددت لي وأنا فيها دواجٍ حفزتي لتحقيق الأمل ، ومباشرة ما كُلفتُ من العمل . فوضعتُ هذا التفسير مستعينا بحول الله وقوته ، وأكلمته على مثال تفسير شيخنا وطريقته .

بيد أني رأيت أن أتوسع قليلا في التعليق والتفسير ، والاستشهاد والتنظير - ولا سيما في المباحث اللغوية - بأكثر مما فعله الأستاذ رحمه الله في تفسير جزء "عم" مراعيًا في ذلك حال قراء جزء "تبارك" ، ومُقَدِّرا في نفسى أنهم سيكونون أكبر سنا ، وأتم استعدادا ، وأشدَّ اهتماما بالتحصيل من قراء جزء "عم" .

وقد قمت في تفسيري هذا بفعل ما أطيق وأملك : من تحرى الحق والصواب فيما أولت وفسرت ، وبسطِ العبارة وتهذيبها فيما أنشأت وحررت ، وتصحيح النية وجعلها خالصةً لوجهه الكريم فيما اخترت ورجحت .

أما قبوله تعالى لعملي ، وعفوه عن قصوري وزلي ، ورواج تفسيري بين القراء كما هو قصدي وأمي - فإن هذا لا أملكه ولا أطيعه بقوتي ، ولا يدخل تحت مقدوري ومكنتي ، وإنما أكل الأمر فيه إلى الله ، فهو المسئول أن يتولاه بعنايته ، ويجعله قرين التوفيق بفضله وكفايته .

وأحق ما تتقاضاني الذمة إياه بعد أن ذكرت ما ذكرت - الاعتراف بما
تفضل على به كل من صاحبي الجلالة مليكي مصر العظيمين: فؤاد الأول (تغمده
الله برحمته) ، وفاروق الأول (كلأه الله بعين عنايته) من العطف على تفسيري
هذا ، فإنهما هما اللذان سموا به ، وأوليان الشرف بسببه ، وتقربا إلى الله
بإظهار أمره ، وتمهيد الطريق إلى طبعه ونشره . كل هذا لما وقر في نفسيهما
من حب القرآن الكريم ، والحرص على أن تعم فائدته ، وتشمل المسلمين بركته .

فإن جلالة الملك الوالد لم يكذب يرفع إليه خبر هذا الكتاب حتى أمر
بإرساله إلى المشيخة الأزهرية للنظر فيه ، وكان ذلك في عهد الشيخ الأحمدي
الظواهري (رحمه الله) . فأعادته (المشيخة) إلى القصر الملكي مصحوبا بتقرير
اللجنة التي نظرت فيه ، وقد أبدت خمس ملاحظات أو ستا كنت وافقت
في معظمها مذهب الاعتزال ، فرأيت أن مثل هذه الملاحظات لا ينبغي أن
يقف سدا في وجه التفسير ، ولا أن يحول بينه وبين انتفاع المسلمين به ، على
اختلاف ثقافتهم ، وتباين مشاربهم ، فعمدت إلى تلك الملاحظات فسويتها بما
وافق رأى اللجنة .

ثم رجعت البلاد المصرية بموت العاهل الوالد ، وخلفه المولود المبارك
جلالة فاروق الأول . فسئلت المشيخة الأزهرية في عهد شيخها الأستاذ
(محمد مصطفى المراغي) عن خبر التفسير فأجبت بكتاب قالت فيه :

حضرة وبعد فإني بحثت عن الأدوار التي مر بها تفسير (جزء
تبارك) فعلمت أنه حول من مشيخة الأزهر إلى لجنة مؤلفة من حضرات
أصحاب الفضيلة : الشيخ إبراهيم الجبالي ، والشيخ محمد الحضر حسين ، والشيخ محمد

عَرَفَ ، وأنَّ اللجنة بعد قراءته أبدت بعض الملاحظات ، وأن هذه الملاحظات
نَقَّحت بما يتفق ورغبات اللجنة ، وبذلك أصبح التفسير سليماً من المآخذ التي
لوحظت أولاً ، وأنه مرجو النفع به ، لما فيه من العناية بتقرير المسائل التي
تمسُّ إليها الحاجة ، ولما هو عليه من سلامة الأسلوب ، وصفاء العبارة .

في ٢٩ فبراير سنة ١٩٣٦

شيخ الجامع الأزهر

محمد مصطفى المراغي

وقد عنيت وزارة المعارف المصرية بهذا التفسير ، وأحالته على لجنة من خيرة
رجالها المختصين ، فراجعته ، وأشارت بطبعه ونشره ، تعمياً لفائدته في معاهد
العلم المختلفة ، وبين جمهور المسلمين في بقاع الأرض .
والله المسئول أن يجعله خالصاً لوجهه ، وأن ينفع به ، فإنه الموفق إلى الخير ،
والهادي إلى سبيل الرشاد ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

عبد القادر المغربي

سورة الملك مكية

وهي ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

جميع سور هذا الجزء أنزلت بمكة أى قبل الهجرة . ومن ثم كان الخطاب الإلهى فيها موجها إلى المشركين . وهو فى الأغلب يدور حول إثبات وجود الله تعالى والاستدلال عليه بما خلق من الكائنات ، ثم إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه صادق فى دعوى الرسالة والوحى ، ثم تقرير المكذبين وتخويفهم ما بين أيديهم من هول الحشر والحساب ، وأن هذا الحشر ممكن وسيقع بالفعل ، فيلقى كل فريق من الجاحدين والمؤمنين جزاءه اللائق به ، فى داره المعدة له . ووصف هاتين الدارين وصفا يدها فى أسلوبه ، عجيبا فى نسقه وتركيبه . ويتخلل الآيات تسليئة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتقوية قلبه الشريف ، وحثه على الصبر والتجلى والتأسي بإخوانه الأنبياء الذين تقدموه ، ولقوا من أمهم مثل ما لقي أو أشد .

وقد افتتحت هذه السورة بتمجيد الله تعالى المالك لكل شىء ، والذي خلق البشر واختبرهم بإحيائهم وإماتتهم ، وخلق السموات على نظام محكم ، وزينها بالنجوم ، كما جعل تلك النجوم من جهة ثانية رجوما للشياطين الخ .

(تبارك) فى مادة البركة معنى الزيادة والنماء والدوام : فعنى تبارك الله تعاظم وجلت صفاته ، وتعالى عن مشابهة المخلوقين تعالىا دائما لا يعتوره نقص ولا انقطاع .

(بيده الملك) أى أن التصرف المطلق فى هذه الكائنات له تعالى لا لغيره . ويراد من ذكر اليد فى مثل هذا الاستعمال إفادة معنى التحكم من الشىء والاستيلاء التام عليه .

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿١﴾

(ليبلوكم) أى ليختبركم ويمتحنكم .

استهل الكلام بأن له تعالى التصرف فى كل شىء والقدرة على كل شىء . ثم ذكر مثالا من أمثلة تصرفه وقدرته ، فقال : إنه تعالى قدّر على البشر موتا وحياة . والمراد بالموت الحالة التى يكون فيها الإنسان عناصر متفرقة ، لا حياة فيها ولا شعور . ثم بعد ذلك يسلط الله على تلك العناصر من نوااميس قدرته ، المنطبقة على سابق مشيئته — ما يجعلها حية مدركة ذات إرادة واختيار . ولماذا هذا ؟ لأنه تعالى يريد أن يختبر الإنسان : أى يعامله معاملة المختبر المحرب ، فيظهر أمره . ويعرف مقدار طاعته وميله إلى الفضيلة ، ومبلغ عصيانه وجنوحه إلى الرذيلة . وإنما قلنا فى معنى الابتلاء هذا لأنه تعالى يعلم أمر الإنسان من دون اختبار ولكن الإنسان نفسه والناس لا يعلمون ذلك ، حتى إذا علموا حقت الكلمة ، وقامت الحجة ، وانقطعت المعاذير .

ويروى أنه صلى الله عليه وسلم تلا هذه السورة فلما بلغ قوله تعالى : (أيكم أحسن عملا) فسر به بقوله : ” أيكم أحسن عقلا ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع فى طاعة الله “ ، فالمفاضلة فى حسن العمل إنما هى فى أن يكون المؤمن أتم تعقلا لأوامر الله ، وتفهما لأسرار مشيئته فيما أوحاه إلى نبيه . فيورثه ذلك التفهم الكف عن المحارم ، والمسايرة إلى ممارسة الطاعات . حتى إذا فرط مفرط فى جنب الله وخالف أمره ، وتصادى فى غيه وضلاله — لا يعجزه تعالى أن يجازيه على سوء صنيعه ؛ لأنه تعالى (العزیز) الذى لا يغلب ولا يسبق ، كما أنه تعالى (الغفور) الذى يعفو عمن تاب وأصلح وكف عن المحارم .

ثم إن للموت والحياة كنها يصعب تعقله على كل المخاطبين ، وليس فى طاقة معظمهم سهولة الانتقال منه إلى إثبات وجود الله تعالى . لذلك عدل الوحي الإلهي إلى ما فيه يسر وسهولة عليهم ، وهو النظر فى هذه السفوات المرئية ، وعجائب الصنع والتكوين فيها فقال (الذى خلق سبع سموات الخ)^(١)

(١) هكذا يقول المؤلف فى بيان وجه الانتقال من ذكر الموت والحياة إلى ذكر طبقات السماء . وزى أن ما ذكره لا يصلح وجها لذلك ؛ لأن الله تعالى حين يطالب الناس بالنظر فى أمر الموت والحياة لا يطلب منهم معرفة حقيقة يعجزون عن إدراكها ، بل يطلب منهم الاستدلال بتواردتها على الأجسام ، وهو ما يراه الناس جميعا ، ويعرفون من أمره بالحواس ما يكفى فى الاستدلال ، وما لا يعرفون مثله من طبقات السماء ، التى لا يعرفها العلماء إلا بعد دراسة شاقة .

فالأمثل فى وجه الانتقال أنه بعد أن ذكر آية فى الإنسان انتقل إلى ذكر آية فى الآفاق المحيطة به ، على حد قوله تعالى : « سترهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » اهـ مصححه .

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ
فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ
إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾

(طباقا) مصدر طابق النعل خصفها وجعل كل طبق منها حثوا الطبق الذي يليه ، أو هو جمع طبق بكلي وجبال ، أو جمع طبقة مثل رجة بالتحريك وهي الساحة إذ يقال في جمعها رحاب . (تفاوت) اختلاف واضطراب وخلل في الحلقة (فارجع البصر) أى انظر مرة أخرى نظر متفحص متأمل ؛ فقد تكون نظرتك الأولى مجردة عن ذلك (فطور) جمع فطر ، وهو الشق والصدع في الشيء . والمراد هنا الخلل وعدم التلاؤم بين أجزاء السموات (كرتين) مرتين . والمراد بالثنائية التكثير : كأنه يقول : ثم رد بصرك المرة بعد المرة ، بدليل السياق ، إذ يقول تعالى : (ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير) والبصر لا يكل يجرد النظر مرتين اثنتين ، وإنما يكل ويتعب بترديد النظرات الكثيرة . وهذا مثل قولهم ليك وسعديك ، فإن الثنية فيهما لإفادة التكثير [خاسئا] اسم فاعل من خسى بمعنى تباعد بذلة وصغار . ومنه قولهم للكلب : اخسأ ، فإذا تكررت النظرات ولم تجد خلا رجعت بعيدة عن نيل غرضها ، وإصابة ملتصقها : كأن عليها آثار الذلة والصغار [حسير] كليل معي من كثرة ما بحث عن الفطور والتفاوت فلم يجدهما .

هذه الآية مثال ثان من أمثلة سعة ملكه ، وشمول قدرته . ذكر في صدر السورة أنه تعالى بث الحياة في البشر بعد أن كانوا عناصر ميتة لا شعور فيها . ثم ذكر هنا من مظاهر القدرة أنه تعالى خلق سبع سموات يعلو بعضها بعضا ، وأنت لا ترى عند التأمل خلا فيها ، ولا تشاخصا (١) بين أجزائها . لحقق النظر إليها ، وتأمل تأمل متفحص هل تجد فيها خلا ؟ ثم إذا لم تطمئن للنظرة الأولى التي ربما كانت حمقاء فأعد نظراتك مرارا . فلا جرم أن يكل إذ ذاك بصرك ، ويخيب بحثك ، ولا تطفر بمطلوبك من وجود الخلل والفطر . والخطاب في قوله (ما ترى) (فارجع) (ثم ارجع) لكل امرئ يتأتى منه الرب والشك في مبلغ القدرة الإلهية ، لا لواحد بعينه . وقد أيدت تجارب العلماء الباحثين في المادة ونواميسها ، والكائنات وسننها - مضمون هذه الآية ؛ فإنهم قرروا - بعد النظر الدقيق - أن العالم جميعه - من أصغر ذرة في فضائه ، إلى أكبر جرم في سمائه - خاضع لنامويس واحد ، ومتناسك بنظام عايم شامل : لا يمكن حصول خلل فيه ، ولا طرؤ شذوذ عليه ، إلا أن يشاء الله . فتبارك الله أحسن الخالقين .

(١) شخص الأمر كمنع وتشاخص : اضطرب وتفرق ، فهو شخيس .

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ

والسموات السبع هي طرائق السيارات ومداراتها ^(١). ولا ريب أن هذه المدارات طبقات : طبقة أدنى من طبقة ، وفلك فوق فلك . وإنما اقتصر الوحي من ذكر السموات على سبعة — مع أن العلم أثبت أنها أكثر من ذلك — لأنه تعالى إنما يخاطب القوم وقت البعثة بما عرفوا من أمر الأفلاك وكواكبها . وقد أحالهم على النظر والتأمل في تكوينها وأوضاعها ، ليتنبهوا إلى كمال إحكامها ، وليحدث الخطاب في نفوسهم عبرة وإذعانا وفضل تأثر ، وليكون ذلك آية لهم على وجود الله وكريم صفاته . وهذا هو جل القصد من ذكر السموات في القرآن . وليس القصد من ذكرها تقرير حقائق في علم الهيئة . وسكوت الوحي عن ذكر ما زاد على سبع السموات لا ينفي وجود الزيادة . والحكمة في هذا السكوت أن المخاطبين في ذلك العهد ما كانوا مقتدرين على النظر والتفكير في غير السموات السبع أو السيارات السبع التي عرفها الأوائل ، واشتهر أمرها عند عامة الناس يومئذ . أما النجوم الثوابت الأخر فلم يكن يتيسر لهم أو ينتظر منهم أن يرجعوا البصر فيها ليروا ما فيها من تفاوت أو إحكام ، وذلك لبعدها الشاسع عن متناول الحس ، وعدم معرفة الأوائل ما عرفه المتأخرون من طبائعها وأحوالها . وأما قَلَكَا "أورانوس" و"نبتون" فلم يكونا اكتشفا بعد في ذلك العهد ، فلو أحال الله البشر في قرآنه على ما لم يمكنهم النظر فيه ، والإحاطة علما بأمره من النجوم الثوابت والفلكين المذكورين — لكانت إحالته عبثا ، وتكليفه محالا . وقد أبى الله سبحانه وتعالى لنا ذلك في مُزَلِّ وحيه ، وبحكم شرعه ، تفضلا منه ورحمة . وسيأتي زيادة بيان لهذا البحث في سورة نوح فانتظره .

(الدنيا) تأنيث الأدنى ، وهي صفة للسماء ، أي السماء التي هي أقرب إلينا من سائر السموات . (بمصابيح) جمع مصباح ، وهو السراج . وقد أراد بها النجوم التي تضيء نواحي السماء على طريقة التمثيل . ونكر المصابيح تفخيما لشأنها ، وعجيبا من أمرها ، وأنها قد بلغت من الإضاءة والجمال حدا دونه مصابيح الناس وسرجههم المعهودة .

ولا يقال إن معظم النجوم التي نراها في السماء الدنيا هي نجوم ثوابت مقرها فوق السموات جميعها ، لأننا نقول : إن تلك النجوم الثوابت هي من كواكب السماء الدنيا وزيبتها في بادئ النظر ، وإن كان مركزها حيث ذكر ، فلا منافاة بين كونها فوق السموات وبين جعلها زينة للسماء الدنيا

(١) قال ابن سيده الأندلسي في محصنه (ج ١٦ ص ١٨١) ما نصه (والسماء والسموات مدار النجوم) المؤلف .

وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾

(رجوما للشياطين) [الرجم] في الأصل مصدر رجمه إذا رماه بنحو حجر، ثم سُمي الشيء الذي يرمى به [رجما] تسمية بالمصدر، وجمع على [رجوم] مثل ما مر في جمع فطر على فطور. و[الشياطين] طائفة من المخلوقات الشريرة. لانعرفها بأعيانها. وإنما نعرفها بأثارها. ومن جملة تلك الآثار خواطر السوء، ونزوع أنفسنا إلى الشرور. وهذه المخلوقات الغيبية هي ما يفهم في الأعم الأغلب من إطلاق لفظ الشياطين. وإلا فإن الشيطان اسم لكل متمرّد عاتٍ، سواء أكان إنساناً أم جناً أم دابة. ومن ذلك قوله تعالى: (وإذا خلوا إلى شياطينهم) أي رؤسائهم من الإنس. وفي الحديث "لا تُصَلُّوا في مَبَارَكِ الإِبِلِ، فإنها من الشياطين" قال بعض شراحه: إنها من الشياطين حقيقة؛ لأن الشيطان اسم لكل متمرّد عاتٍ كما قلنا. وقال آخرون: إن الإبل تشبه شياطين الجن في النفور والتهوُّش على المصلين.

(وأعتدنا لهم عذاب السعير) أي وأعدنا لأولئك الشياطين عذاباً تُسعر فيه النار، أي تُوقد أشد إيقاد.

ذكر في الآية السابقة السموات وإحكام صنعها، وذكر هنا ما فيها من النجوم المتلائة، وقال إن تلك النجوم خلقت زينة للسماء ورجوما للشياطين. ولا ينافي هذا أن تكون النجوم خلقت لمصالح آخر: ككونها علامات يهتدى بها المسافرون في ظلمات البر والبحر؛ إذ ليس في الآية ما يستدعي الحصر.

ومعنى جعل النجوم رجوماً أنها سبب للرجوم، ومصدر لها. وإلا فإن النجوم أجرام كبيرة ثابتة في مراكرها وتسمى ثوابت، أو متحركة في أفلاكها وتسمى سيارات. ولا يمكن حسابا عرف من السنن والنواميس التي قيدها بها خالقها ومبدعها أن تدع مراكرها أو تخرج عن مداراتها وهي بحيث وصفنا من كبر الحجم فتنبعث وزاء الشياطين. وإنما تكون تلك النجوم منشأ للرجوم ومصدرا لها؛ فالرجوم وهي الشهب أجرام صغيرة مضيئة منفصلة عن النجوم وسابحة في الفضاء، حتى إذا اقترب منها واحد من تلك الأرواح الشريرة المسماة شياطين انقضت عليه بهيئة شعلة نارية وأحرقته. ولا يقتصر في التكنيل به على ذلك، بل قد هيئ له في الآخرة (عذاب السعير) جزاء تصديه لاستراق خبر السماء.

ويقول العلماء المتأخرون في سبب انقضا هذه الرجوم المسماة في اصطلاحهم "نيازك" إنها بعد انفصالها عن الأجرام السماوية بسبب من الأسباب تبقى سابحة في الفضاء، حتى إذا

اتفق اقترابها من كوكب آخر أو من كوكبنا الأرضى ودخلت في منطقة نفوذه — جذبها إليه بسرعة هائلة، فتحترق وتلاشى هباء مثورا، أو تبقى منها بقية تسقط على سطح الأرض، وهى ما يسمونه "الحجر النيزكي".

وما قلناه من أن الرجوم شهب منفصلة عن النجوم لا النجوم نفسها صرح به في الكشف قال: "ومعنى كون النجوم مراجع للشياطين أن الشهب التى تنقض لرمى المسترقة من الشياطين منفصلة من نار الكواكب لا أنهم يرجون بالكواكب أنفسهم لأنها قارة في الفلك على حالها. وما ذاك إلا كقبس يؤخذ من نارٍ والنار ثابتة كاملة لا تنقض" اهـ

أو يقال: ليس المراد بالمصاييح التى زين الله بها السماء الدنيا النجوم أنفسهم؛ بل المراد بها كل ما استنار في أفق السماء بحيث تراه العين في الليل الدامس متلائها مضيئا كمصباح؛ فيدخل في ذلك النجوم كما تدخل الشهب التى هى الرجوم؛ فقوله تعالى وجعلناها أى وجعلناها بعض تلك المصاييح أو نوعا منها وهو الشهب التى ترى في السماء كمصاييح رجوما للشياطين.

ونحن معشر المسلمين نعتقد بظاهر ما ورد في القرآن الكريم من أن النجوم قد ينفصل عنها رجوم تتبع الشياطين. وإذا لم يفهم العلم الطبيعى هذه القضية، فذلك لأنه لم تتوفر له أسباب الفهم اليوم. ويكفيينا في صحة الإيمان بها على ظاهرها أن العقل لا يجعلها من المحالات العقلية.

ولبعضهم في تأويل جعل النجوم رجوما للشياطين كلام جدير بالقبول وهو: أن الرجوم واحدها الرجم مصدر رجم وهو أن يتكلم المرء بالظن والتخمين. ومنه قوله تعالى (رجموا بالغيب) فالرجوم هنا بمعنى الظنون، أما الشياطين فهم شياطين الإنس، أعنى المنجمين الذين اتخذوا من النظر في نجوم السماء والتكهن عن أمور المستقبل بما يبدو لهم من طوالها وقراتها — صناعة لحمتها الرجم، وسداها الوهم؛ فאלله تعالى يقول: إنه خلق النجوم فكانت زينة للسماء، أما الشياطين من الكهان فقد اتخذوها وسائل للتنجيم وإضلال الناس؛ فلا بدع إذا أعدت لهم النار يصلون سعيها.

ومعنى كونه تعالى جعلها ظنونا للمنجمين أن ذلك كان من نتائج خلق النجوم، وقد حصل بإرادته، لا أنه تعالى شرعه ورضى به كما رضى بأن تكون النجوم زينة ومصاييح للسماء.

وستزيد هذا البحث إيضاحا في سورة الجن عند قوله تعالى: (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا).

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ

ربما أوهم قوله في الآية السابقة (وأعدنا لهم الخ) أن عذاب السعير ما أعد إلا للشياطين خاصة ، فنفى ذلك هنا بقوله (وللذين كفروا بربههم الخ) أى أن عذاب جهنم للكافرين جميعهم شياطين كانوا أو غير شياطين ، و (المصير) المرجع والمآل : من صار أمره إلى كذا : آل إليه ورجع ، والمخصوص بالذم محذوف كأن يقول وبئس المصير عذاب جهنم ، و [الشهيق] الصوت الذى يتردد في صدر المرء وهو يبكى ، ويخرج من الجوف بشدة ، ولذلك يسمى نهيق الحمار شهيقا أيضا ، (تفور) تغلى كما تغلى القدر (تميز) أصله تميز أى تتفرق أجزاؤها وتتقطع من شدة غيظها وحقتها على أولئك الكافرين الذين ألقوا فيها ، وهذا كما يقال في وصف الحزين : "يكاد يتفطر قلبه من شدة الحزن" والشهيق والغيط جمعا في آية واحدة في سورة الفرقان في وصف جهنم أيضا (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا) و [الزفير] هو الشهيق أو قريب المعنى منه .

ومعنى الآيات أن أولئك الكافرين حينما يُلقون في جهنم يسمعون لها صوتا شديدا وهى تغلى ، ويكاد الرأى لها من شدة غليانها وحسبها المنكر يحسبها غضبي على الكافرين بحيث يوشك أن تتقطع أوصالها من فرط غيظها عليهم ، وهل هذا الصوت صوت جهنم نفسها بمعنى أن المواد التى تلهب فيها يسمع لها هذا الصوت ؟ أو هو صوت أهلها الذين أُلْقوا ويلقون فيها ؟ لم يكلفنا الشرع تعيين أحد الأمرين ، كما لم يكلفنا أن نعرف جهنم نفسها والجنة وسائر شئون عالم الغيب معرفة كنه وتحديد ، وإنما كل ما على المؤمن أن يعتقد أنه تعالى أعد دارا للأشرار تسمع فيها النار وتفور وتسمع لها صوت على المعنى الذى يريد سبحانه وتعالى . أما ما وراء ذلك من اعتقاد أن مواد جهنم وعناصرها وطبائعها وجليانها وحسبها من جنس ما نعرفه في الدنيا أولا — فهذا مما لم نكلفه رحمة بنا ، إذ القصد أن يؤدى علمنا بالنار إلى الخشية والازدجار وهذا يحصل بمجرد ما قصه الله علينا من أمرها وأن الداخل إليها يشعر من الألم بأقصى ما يعهده في دار الدنيا .

وأما أن الغيط والغضب يكاد يقطع أوصال جهنم ، فهو تمثيل وتصوير لدول أمرها ، وفظاعة خطبها ، قلما يحول حسنه من أوقى حظا من علم الأدب ، وتلوق بشيء من خصائص لغة العرب .

كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسَحَقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

الكلام متصل بما قبله ، فبعد أن وصف دار العذاب جاء هنا يصف لنا أطوار المعذنين فيها ، (فوج) جماعة من الجاحدين ، (خزنتها) هم الموكلون بها ، ويسمون الزبانية (نذير) رسول من قبل الله ينذركم بطشه ، ويحذركم عقابه ، (بلى) حرف تصديق يقع بعد النفي فيفيد إثبات المنفى ، وفي الآية لم يكتف بما تفيد (بلى) من الإثبات ضمنا ، بل جرى به صراحة ، إذ قيل (قد جاءنا نذير) ولو لم يصرح به لفهم ، و[الضلال الكبير] هو أن يبعد المرء عن الحق بعدا شاسعا ومفعول (نسمع أو نعقل) محذوف أى ما كنا نسمع ولا نعقل كلام الرسل ولا إنذارهم ولا تحذيرهم والمراد بنفى السماع والعقل نفى الإجابة والتلبية ، لأن القوم لم يكونوا صما ولا مجانين ، وهذا الاستعمال شائع في كلام العرب . قال شاعرهم :

دعوتُ الله حتى خفت ألا يكون الله يسمع ما أقول

أى حتى خفت ألا يكون الله يريد إجابة دعائى ، وتلبية ندائى ، و(السعير) من أسماء جهنم وهو من سَعَرَتِ النار فهي مسعورة وسعير ، مثل مقتولة وقتيل ، أى أوقدتها إيقادا شديدا ، [سحقا] بعدا وهلاكا ، وهى من كلمات الدعاء والتقريع مثل تبا وجدعا ، ويقال فى ضدّها سقيا ورعيا ، وأصل معنى [سحقا له] أسحقه الله سحقا ، أى أبعد من رحمته إبعادا ، ومن السحق بمعنى البعد قولهم "مكان سحيق" أى بعيد و"نخلة سحوق" أى طويلة ، ومعنى الآيات أنه كلما أُلْقِيَ فى جهنم جماعة من المكذبين سألهم القائمون عليها سؤال توبيخ وتقريع : ألم يرسل الله إليكم رسولا ؟ فيقولون : بلى ! أرسله إلينا فكذبناه وأفرطنا فى التكذيب حتى جحدنا الوحى السماوى

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾

وقلنا ما أنزل الله شيئا مما تدعونه أيها الرسل ، ثم ذهبنا في الجحود والعناد والجرأة على الله كل مذهب ، فقلنا للرسل ((إن أنتم)) أى ما أنتم معشر الرسل إلا بعيدين عن الحق والصواب أشد بعد . ثم قال المستولون لأولئك السائلين مقال النادم الآسف : لو كنا سمعنا كلام الرسل سماع إصغاء وقبول ، وعقلناه عن تفكر وتدبر — لكنا آمننا بهم وبالحق الذى جاءوا به ، وما كنا الآن في عداد زوار جهنم نقاسي حرها ونصلي سعيها . ثم قال تعالى فانظر كيف اعترف هؤلاء القوم بذنوبهم في وقت لا ينفعهم فيه الاعتراف . ومن كان هذا شأنه في العناد ومقاومة الحق لا ينبئ الرأفة به ، ولا العطف عليه ، وإنما يحسن تقريره وتوبيخه ، والدعاء عليه بالسحق والهلاك . وفي تكرير تلقيهم بأصحاب السعير من النعى عليهم والهزء بهم ما لا يخفى وقعه وحسن إيراده .

وإنما سألمهم زبانية جهنم هذا السؤال وهو قولهم لهم (ألم يأتكم نذير) مع أنهم ربما كانوا عالمين بما كان منهم في دار الدنيا — ليكون ذلك أشد نكايّة في تعذيبهم ، وأكثر إيلا ما لنفوسهم فإنه لا يرمض قلب المرء شيء مثل أن يقال له في حين ظهور خطئه ، ومقاساته عاقبة ما جتته يده : إنك أنت الجاني على نفسك ، أنت الذى فزطت بما تيسر لك من أسباب النجاة والسعادة فشقيت .

قلما يصف القرآن ما أعدّه الله للكاذبين في الدار الآخرة من أنواع العذاب إلا أتبعه بذكر ما أعدّه للمؤمنين من منازل الكرامة وصنوف النعيم ، وهذا هو معقد الاتصال بين هذه الآية ((إن الذين يخشون ربهم إلخ)) وسابقتها ، على أن لها بها اتصالا آخر أدق وألطف : ذلك أن المكذبين لما وردوا جهنم ورأوا ما هالهم أمره من أحوالها ، وسئلوا عن سبب ورودها — أجابوا بأنهم كانوا يكذبون أقوال الرسل ، وينكرون الوحي وما اشتمل عليه من الوعد والوعيد . وحجتهم في ذلك أنهم يستبعدون وجود تلك الدار وهم لم يروها ، فهما وضحت لهم صحة الرسالة وقامت القرائن على صدق الرسول في دعواه اتخذوا عدم رؤيتهم لما بَشَّرُوا أَنْذَر به من عالم الغيب والنشأة الثانية ذريعة إلى تكذيبه صلى الله عليه وسلم ، وعدم الاعتداد بقوله ، فكان أمر الغيب أكبر عقبة في طريق إيمانهم أما أولئك (الذين يخشون ربهم) أى يخافون عذابه ((بالغيب)) أى حال كون ذلك العذاب غائبا عنهم ولم يعاينوا منه أثرا — فإنهم جديرون بأن تكون ((لهم مغفرة)) وعفو من الله عن ذنوبهم ((وأجر كبير)) أى عظيم إذا قيس بلدائد الدنيا الصغيرة الحفيرة .

وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾

بعد أن أنذر تعالى المكذبين وبشر المصدقين عاد فنبههم جميعاً إلى أنه عالم بما يكون منهم من إيمان وكفر ، ولا فرق عنده بين السر والجهز . والخطاب في قوله : «(وأسروا قولكم)» - وإن كان موجهاً إلى الفريقين المصدقين والمكذبين - كان سببه صادراً عن المكذبين وهم المشركون ؛ فإنهم كانوا يوصى بعضهم بعضاً بالآل يجهروا بما يدور بينهم من الحديث ؛ لئلا يطلع عليه النبي صلى الله عليه وسلم . و [ذات] بمعنى صاحبة للوث كما أن [ذو] بمعنى صاحب للذكر . وإذا قال العرب "ذات الخدر" أرادوا المرأة صاحبة الخدر الملازمة له . وكذلك هم يريدون «(ذات الصدور)» الخواطر التي تلازم الصدور فلا تبرزها وتبقى مخفية فيها . و «(مَنْ خَلَقَ)» يمكن تطبيقه في الإعراب النحوي على وجهين : إما أن نجعل (من) فاعلاً ليعلم : كأنه يقول : ألا يعلم الخالق ؟ ويصح أن يكون مفعولاً به ليعلم ويكون فاعله ضميراً راجعاً إلى الله : كأنه يقول : ألا يعلم الله تعالى مخلوقاته ؟ و «(اللطيف)» فيه معنى الدقة وصغر الحجم [لطف الشيء] صغرو دق حجمه ، فهو لطيف . وإذا وُصف به ذو العلم والقدرة كان معناه أنه مطلع على الأمور الدقيقة التي قلما يَفْطن لها . والله سبحانه وتعالى لطيف أي أنه عالم بدقائق شئون البشر مطلع على غوامض مصالحهم . وهو يسلك في تمهيد طريقها بين أيديهم مسلك الرفق والرحمة . ولذلك يقولون : "هو لطيف بعباده ، وإن لطفه بعباده عجيب" يريدون عنايته تعالى بكشف الضر عنهم ، وإيصال الخير إليهم ، من حيث يخفى ذلك عليهم ، ولا يقع تحت مشاعرهم .

والآية على وجازة لفظها تتضمن قضايا ونتائج أخذ بعضها برقاب بعض ، فهو تعالى يقول للقوم المخاطبين : إنه لا فرق عنده بين أن تسروا حديثكم بينكم أو تجهروا به وتسمعهو للآل ، لأنه تعالى يعلم خواطر قلوبكم ، وما يدب من الأسرار في صدوركم ، ولو لم تنوطوا بها أجراس الألفاظ فكيف لا يعلم الألفاظ المهروس بها همسا ؟

ثم انتقل إلى الاحتجاج على من عساء ينكر أن يكون الله تعالى عالماً بالضمائر ، وخفي السرائر ، فنبهه إلى أنه تعالى هو الذي خلق البشر وأوجدهم من العدم ، والخالق يعلم ألبنة ، كيف لا وعلمه قد نفذ إلى أسرار المعلومات ، وتستن غوامض الأمور ؟ . هذا إذا جعلنا (من خلق) فاعلاً ليعلم . فإذا جعلناه مفعوله كان المعنى : كيف لا يعلم تعالى الهواجس التي تحيك في نفوس البشر وهو الذي خلق هذه النفوس ومن كمال العلم بالشيء العلم بما يحتوي عليه ذلك الشيء ؟

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ
وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾

بعد أن ذكر تعالى في الآية السابقة أنه لطيف خبير ذكر هنا مثالا من أمثلة ذلك اللطف العجيب ؛ فهو تعالى خلق البشر ، وعلم دقائق طبائعهم ، وغوامض استعداداتهم ، فأمدهم من صنوف النعم بما يلائم حالهم ، ويسهل عليهم البقاء في هذه الدار الدنيا . ألا يكون هذا الإمداد ، وذلك اللطف المشاهدة آثاره بأم العين - باعثا على خشية الخالق وتصديق رسله ، والإيمان بالغيب الذي أخبر به ؟؟

أصل [الذُّلُول] الدابة اللينة السهلة الانقياد . مشتق من الذَّلَّ بكسر الذال بمعنى اللين ، وهو ضد الصعوبة . والوصف منه ذلول . أما الذَّلَّ بضم الذال فهو أن يهون أمر الرجل ، ويصغر شأنه بين الناس . وضده العز . والوصف منه ذليل . و [المناكب] جمع منكب على وزن مجلس وهو الناحية من كل شيء : فمناكب الأرض أطرافها وجوانبها . ومنكب الرجل جانباه . والمنكب أيضا في البعير والإنسان اسم للموضع الذي يلتقي فيه عظم عضده بكتفه . وهما منكبان ؛ فيحتمل أن يكون المراد بمناكب الأرض جبالها وآكامها ، وتكون سميت بذلك لشخوصها وارتفاعها كارتفاع المناكب في الإنسان . وخص الجبال بالذكر في قوله (فامشوا في مناكبها) لإفادة أن الأرض غاية في السهولة والانقياد للإنسان بحيث يتسنى له الانتفاع بوعورها وحزونها ، فكيف يكون مقدار انتفاعه بسمولها وأريافها المتبسطة ؟ يروى أن بشير بن كعب العدوي قرأ هذه الآية (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها) فقال لجارية له : " إن دريت ما مناكبها فأنت حرة لوجه الله " فقالت : " مناكبها جبالها " فكأنما سُفِّع في وجهه ، أي كأن لاطما لطمه على وجهه ؛ خشية أن تكون الجارية أصابت في تفسير المناكب ، فتعتق عليه ، وتخرج من ملكه ، وهو ضتين بها . فسأل ، فن قائل عتقت ، ومن قائل لم تعتق . ثم سأل أبا الدرداء الصحابي الجليل رضي الله عنه ، فقال له : " إن الخير في طمأنينة ، وإن الشر في ريبة ، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك " ومعنى هذا أن خيرا للإنسان أن يكون في حالة طمأنينة وهدوء نفس ، وأن شره أن يكون حاله على العكس ، وأن الجارية يحتمل أن تكون أصابت وأن تكون أخطأت ، فبقاؤها في ملك سيدها مدرجة للشيطان بالوسوسة إلى نفسه ، فالأحسن له أن يعتقها ثم يترجها إن شاء

وشاءت هي . و (النشور) مصدر تشر الميث ينشر من باب دخل عاش بعد الموت . ومعنى كون النشور إلى الله أن البعث ومرجع الإنسان في نشأته الأخرى إليه تعالى ، فليس من يحاسبه على أعماله سواه .

فلنا أنفا إن هذه الآية تتضمن مثالا من أمثلة لطفه تعالى بالبشر مذ جعل الأرض صالحة لسكانهم فيها ، على أن الآية ربما كانت مسوقة لتهديد المكذبين وتذكيرهم بأن من يسرهم أسباب البقاء في هذه الأرض قادر على سلبهم إياها ، فهو يقول لهم : احذروا هذا التماذي والتكذيب للرسول ومحاوله إخفاء سرائركم ، واذكروا أنه تعالى جعل لكم الأرض سهلة لينة متفاداة انقياد الدابة الذلول ، فدعوا إذن العناد والتكذيب جانبا ، وحافظوا على هذه النعمة ، وامشوا في الأرض مشى المستثمر المستفيد ، وانتفعوا بما هيأه لكم فيها من أنواع الرزق وأصناف القوت . ثم لا تتركوا إلى هذا العيش الهنيء ، فتستسلموا إلى أهوائكم ، ووساوس نفوسكم ، بل تيقنوا أنكم سوف ترجعون بعد النشور من قبوركم إلى الله ، فيحاسبكم ويتصف منكم .

وانقياد الأرض للإنسان ظاهر بالأكثر في الأمم الحية التي عرفت كيف تنتفع بقوى نفوسها ومدارك عقولها الممنوحة لها من قبل العزة الإلهية . فهي لم تدع ضربا من ضروب الانتفاع بهذه الأرض إلا تناولته ، ولا طريقا من طرق الاستفادة من خيراتها إلا سلكته : حلت العناصر وركبتها . صهرت المعادن وطبعتها . عرفت طباع الحيوانات وسخرتها . ففهمت خصائص النباتات واستنبتها . اكتشفت نوايس المادة وأخضعتها . اكتنفت أسرار الكائنات واستخدمتها . غاصت في أعماق الماء . طارت في أجواز السماء . إذا اعترضتها شواخ الجبال نادتها بالبخار من تحتها ، أو توقلت بسلام سكك الحديد من فوقها . وبالجملة فإن في بلوغ البشر هذه الدرجة من الرقي مصداقا لامتنان البارئ تعالى عليهم يجعل الأرض ذلولا لهم يمشون في مناكبها ، ويأكلون من رزقها ، حتى يأتيهم اليوم المقدور ، ثم إلى الله يكون النشور .

وقد يقال في تصوير كون الأرض ذلولا لنا معشر البشر أننا نعيش محمولين على ظهرها ، وهي تسير بنا الهوينا في فلكها حول الشمس : لا تبطئ ولا تسرع بأكثر مما تستدعيه حال سكانها ، ولا تصادم نجما أو ذنبا للنوات الأذئاب السابحة في الفضاء . فكانت الأرض لنا نعمت المطية المدربة ، والذللول المجربة .

ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ ﴿١٦﴾

لحاق هذه الآية بما قبلها يؤيد أن الأولى واردة مورد التحذير والتهديد كما سبقت الإشارة إليه . و(من في السماء) هو الله تعالى . ولكن قام البرهان العقلي على أن الإله الأزلئ خالق الكل ، وضابط الكل ، لا يتصور أن يكون مستقرا في مكان . فوجب إذن صرف الآية عن ظاهرها ، وحملها على معنى يلتحم مع ما أثبتته العقل ، وقام عليه البرهان . والقرآن يفسر بعضه بعضا : قآية (وهو الله في السموات وفي الأرض) تنفى أن تكون ذات الله في السموات وفي الأرض ؛ إذ كيف يعقل أن تكون الذات الواحدة في مكانين في آن واحد ؟ لا جرم أن يكون المراد بكونه تعالى في السماء وفي الأرض أن مشيئته وحكمه نافذ فيهما ، وسلطانه وقهره غالب عليهما . والذي يساعد على هذا التأويل ما جرت به عادة البشر حتى الضالين منهم ؛ فإنهم ينتظرون وصول النعم إليهم . ويحذرون حلول النقم بهم من جانب السماء ؛ فهي قبلة خوفهم ، ومحراب رجائهم . وصاروا يفهمون من كون الله في السماء عند الإطلاق أن السماء مصدر تصرفه ونفوذ مشيئته في العالم .

وذهب أبو مسلم الأصفهاني^(١) إلى أن العرب لما كانوا يقرون بوجود الله تعالى ويزعمون أنه في السماء — خوطبوا في الوحي على حسب اعتقادهم ، فقيل لهم : (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض ؟) أى أأمنتم أيها القوم ذاك الإله العظيم الذي تعتقدون أنه موجود في السماء أن يهلككم ؟ هذا ما قاله أبو مسلم وهو دقيق جدا . وربما ورد في القرآن أمور لم تذكر على جهة التقرير والتشريع وإرادة حمل المخاطبين على اعتقادها ، وإنما تذكر على سبيل الفرض ، وإرخاء العنان لهم في اعتقادها اعتماداً على نصوص أخر بينت فساد هذا الاعتقاد . وقد قال الإمام الشاطبي في موافقاته : إن القرآن لا يذكر أمرا باطلا ما لم ينبئ على بطلانه وفساد أمره .

و[خَسَفَ] المكان خسوفا غاب في الأرض ، وخسف الله به الأرض خسفا غيبه فيها . و(تمور) تضطرب وتحرك بشدة حركة أفقية أى يمينا وشمالا وهي أشد حالات الخسف هولا وتخريبا .

(١) المتوفى سنة ٣٢٢ في تفسيره المسمى (جامع التأويل للحكم التنزيل) .

أَمْ أَمِنْتُمْ مَّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝١٧

وقوله ((أَمْ أَمِنْتُمْ مَّنْ فِي السَّمَاءِ)) إضراب عن التخويف الأول وهو الخسف بهم ، وانتقال إلى تخويف أقرب وقوعا ، وأكثر حصولا ، وهو إرسال الحاصب ، و [الحاصب] ريح شديدة تثير الحصباء . وهي الحصى . و [حَصَبْتُ الرَّجُلَ] رميته بالحصباء . (ونذير) أصله نذيرى بياء المتكلم ، لكنها حذفت ليشابه الوقوف عليها بالسكون خواتيم الآيات المقدمة عليها والمتأخرة عنها . ومعنى [نذيرى] انذارى ، وهو اسم مصدر لأنذر ، أما المصدر فهو الإنذار .

ذكرهم تعالى بنعمة صلاحية الأرض لمعيشتهم فيها ، ليعت هذا التذكير في نفوسهم فضل خشية ، وزيادة اتعاظ . ثم حذرهم عاقبة التماذى في الجحود ، وأنه ليس من اللائق بهم أن يأمنوا زوال النعم عنهم ، ويذهلوا عن أن الذى أعطاهم هذه النعم وهو الله تعالى قادر على أن يسلبهم إياها ؛ فبعد أن تكون الأرض ذلولا صالحة للانتفاع بها . تصبح كالفرس الجرح ، أو البعير الصعب ، فلا يعود يمكنهم القرار عليها ، فترجف وتضطرب اضطراب خسف وزلازل وتبتلعهم . ولا ينتهى التنكيل بهم عند هذا الحد ، بل تأخذ بعد ابتلاهم في المور والاهتزاز الشديد ؛ فيكون هذا أدعى لتراكم الأتقاض عليهم ، وصعوبة خلاصهم والخلوص إليهم . وكأن المخاطبين استبعدوا وقوع الخسف بهم لقلّة حدوثه ولا سيما في جزيرة العرب ، فأضرب تعالى عن تهديدهم بالخسف إلى تهديدهم بعذاب آخر أقرب حصولا ، وأكثر حدوثا في جزيرتهم ، وهو إرسال ريح شديدة عليهم تحمل الحصى وصغار الحجارة وتصكهم بها صكا ، قتلهم وتساصل شأفتهم .

ولما كان من المحتمل أن يبقوا على عنادهم وإصرارهم بحيث لا تنفعل نفوسهم للتخويف بالخسف والريح الحاصب أيضا سكت عن كل ذلك ، ثم أحالهم على المستقبل ، فإنه وحده الحكم في هذه المسألة . وفيه يتبين أن كان إنذار الله لهم وتهديده إياهم بالخسف والريح صادقا أو غير صادق . وهذا مغزى قوله تعالى : ((فستعلمون كيف نذير)) أى سوف يتجلى لكم أيها المكذبون الحق وصدق الإنذار إن بقيتم في عنوكم وبعيد ضلالكم .

مهما ذكر رجال العلم الطبيعى للخسف والزلازل وهبوب الرياح الزارع عللا وأسبابا ، فإن ذلك لا يمنع أن يهلك الله بها أقواما عصوا أمر الله وكذبوا رسله . فإذا هلك قوم بزلازل شديد وكانوا طغاة فاجرين نقول إن الله أهلكهم بالزلازل لسوء صنيعهم ، وقد نشأ الزلازل نفسه عن انفجار أبحر وغارات كانت متجمعة في تجاوىف الأرض ، أو نشأ عن انخساف إحدى

وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾

طبقات الأرض المكوّنة من صخور هشة رخوة ، فتداعت الطبقات العليا المترامية فوقها ،
فحدث الزلزال ، قهضت البيوت وهلك الناس .

ويمكن أن يتصور المرء هذه المسألة تصوراً جلياً بما نورد له من هذا المثال التاريخي ، وهو
أن المنصور العباسي كان تقم من غم له خرج عليه ، وهو عبد الله بن علي ، وأراد أن يقتله غيلة
لا كفاحاً ، خشية غضب من شفع به من سائر عجمته ، فبنى له بيتاً جعل أساسه من قطع الملح
وسجنه فيه أياماً ، ثم سلط الماء على الملح فذاب وتداعى البناء وانقضت الجدران وخر السقف
على الرجل فمات ، وأشاعوا أن موته كان بانهدام السجن عليه ؛ فالذي أهلكه هو المنصور
العباسي ، لكنه توسل إلى غرضه بسقوط الحجارة الثقيلة عليه ، وتوسل إلى سقوطها بانحلال الملح
من تحتها ، وتوسل إلى انحلال الملح بتأثير الماء فيه ، فإذا قال قائل إن الرجل مات لأسباب
طبيعية حدثت في أساس البناء يكون صادقا . وإذا قال آخر إن الرجل مات لأنه غاظ المنصور
ومرق من طاعته فأهلكه يكون صادقا أيضاً ، وهكذا نقول فيما ورد في القرآن من أن الله تعالى
أهلك الأمم الجاحدة بالريح أو الزلزال أو الطوفان أو انبثاق السد أو غير ذلك . والله المثل الأعلى .

كان الخطاب في الآيات السابقة للمشرّكين أنفسهم من عند قولهم (وأسروا قولكم) إلى قوله
(فستعلمون) ثم التفت في هذه الآية : (ولقد كذب إلخ) إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم
وتحديثه عن أولئك المشركين الذين كان يخاطبهم ، وتسلّيته بأنه سينالهم إذا بقوا على تكذيبهم
ما نال مكذّبي الأمم الذين كانوا قبلهم . و (نكير) أصله نكيرى بياء المتكلم لكنها حذفت لموافقة
رءوس الآيات الأخرى كما حذفت من (نذير) . و [النكير] اسم مصدر لتنكر تنكراً . ومعنى
تنكر تغير : يقال تنكر الملك لوزيره إذا تغير قلبه عليه ، وتنكر الصديقان إذا تغيرا وانتقلا من حال
تسر إلى أخرى تسوء ، وتنكر لى فلان لقينى لقاء بشعاً ؛ فعنى التنكر قريب من معنى الحقد .
والسخط على شخص بعد الرضى عنه . ومن تسخط عليه تنتقم منه ، وتنزل به العقاب . فالتنكر
في جانب الله لا يصح أن يراد منه انفعال النفس ، وإنما يراد به لازمه ، وهو الإهلاك وإنزال
العذاب ، ومن ثم قال أبو مسلم الأصفهاني : النكير عقاب المنكر . وهكذا يقال في مكر الله بهم ،
وغضب عليهم ، ورضى عنهم ، ونحك إليهم .

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَيْتَ وَيَقْبِضْنَ مَا يَمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُوَ
بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾

يقول تعالى لا تأس يا محمد مما ترى من عقوق قومك ووجودهم وتكذيبهم لك ؛ فقد كان
هذا دأب الأمم الذين قبلهم : كذبوا أنبياءهم ، وتعادوا في غيهم وعنادهم ، فتَنَكَّرْتُ لهم ، وغضبت
عليهم ، وأنزلت بهم العذاب . ولا تزال أخبارهم وهول ما لقوا متعلماً متداولاً بينكم . فكيف
كان تنكرى لهم ، وتغيرى عليهم ؟ أى فكيف كان غضبي عليهم ، وأخذى لهم ؟ ألم يكن غضباً
شديداً ، وأخذاً وبيلاً .

والآية لم تصرح باسم هؤلاء الأقوام الذين أخذهم الله بذنوبهم وجعلهم مثلاً وعبرة لمشركي
مكة . لكن قوله (فكيف كان نكير) يشعر بأن ما نزل بأولئك الأقوام كان معروفاً للخطابين ؛
إذ كيف يسألهم عن خبر ما حل بهم ، ويطلب منهم المصادقة على هول ما أصابهم وهم لا يذكرون
من أمرهم شيئاً ؟ فإذا لم نقل في تعيين أولئك الأقوام الهالكين لأنهم عاد وثمود أنفسهم نقول
لأنهم من أمم تعرفها العرب طفوا وبنوا فأخذهم الله بذنوبهم ، وأصبحوا عبرة للعبرين بهم .

كان المشركون يكذبون النبي صلى الله عليه وسلم ارتياباً بقوله ، واستخفافاً بما كان يوعدهم
به ، فكانت الآيات تنزل تترى في الاحتجاج عليهم ، وتسفيه آرائهم ، وحضهم على التصديق ،
وتخويفهم العذاب إن هم أصروا وكابروا . وكان معظم السبب في إصرارهم ونكولهم ظنهم أن
لا شيء مما أوعدوا به يمكن أن يلحقهم . فاحتج عليهم سبحانه بما صنع بالأمم التي كانت قبلهم
وقد كذبت فأهلكها . ثم أخذ في هذه الآية (أو لم يروا إلى الطير ما) والتي تليها ينبه المشركين
إلى شمول قدرته ، ويدعوهم إلى التفكير في أنه تعالى قادر على إلحاق العذاب بهم ؛ فإن من
عجائب قدرته ما يروونه في كل وقت وأن من تخليق الطيور فوق رؤوسهم ، واستعلاؤها في طبقات
الهواء ، مع أنها أجسام ضخمة كان من مقتضى النواميس الظاهرة للسادة أن تسقط على الأرض .
ولكنه تعالى بباهر قدرته ، وعجيب صنعه وحكمته — خالف في أجسام الطيور نواميس سائر
الأجسام ذات الثقل ، وركب لها نواميس أخرى لا ثقة بها ، بحيث يمكنها معها أن تستعل في الهواء

من دون أن تسقط . من فعل هذا ؟ ومن أمسك هذه الأجرام الثقيلة ومنعها من السقوط ؟ ما أمسكها إلا الرحمن ، الذي رحم هذه الحيوانات فيسر لها من وسائل الطيران والانتقال بسهولة من مكان إلى مكان — ما حفظ به نوعها ، وانتظمت به معيشتها ، واستمرت عليه حياتها . ولا بدع ، فهو تعالى ((بكل شيء بصير)) ، يعطى كل شيء من خلقه القوى والسنن اللازمة له ، والمتوقف عليها بقاؤه . وقد ذكر علماء هذا العصر أن أكبر طير يعيش اليوم على وجه الأرض يسمى "الكندر" ثقله سبعة عشر رطلا ، والبعد بين جناحيه إذا صفهما أى بسطهما يبلغ عشرة أقدام .

والقصد من هذه الآية تنبيه المشركين المكذبين إلى عجيب قدرته تعالى ، وأن من له هذا التدبير في تكوين خلقه الطير لا يعجزه أمرهم ، ولا يفوته بلوغ ما يريد من إزال العذاب بهم .

بقى هنا شيء : وهو لماذا قال ((صافات ويقبضن)) ولم يقل [صافات قابضات] أو [يصففن ويقبضن] ، أى لماذا عبر عن الصف بالاسم وعن القبض بالفعل ؟

صف الطائر بسط جناحيه في الجو وهو يطير ، وقبضهما إذا ضمهما وضرب بهما جنبه . والأصل الذى يساعد الطير على الطيران إنما هو الصف وبسط الجناحين ، وإذا ضمهما أحيانا عاد فبسطهما للحال ، فهو لا يمكنه أن يبقى قابضا لهما وهو يطير ، بخلاف البسط ، فإنه يبقى ملازما له ساعات كثيرة ، فإكان الأصل في الطيران وهو الصف جاء به على صيغة الاسم ، فقليل (صافات) لإفادة أن الصف هو شأن الطيور الذى تثبت عليه ، وصيغة اسم الفاعل تفيد الدوام والاستمرار ، ولكنها "أى الطيور" في بعض الأحيان يطراً عليها وهى طائفة ما يدعوها إلى قبض جناحيها من حيث إنه يساعدها على البسط والتحريك . فلما كان القبض أمراً طارئاً وعارضاً في الطيران جاء به في الآية بلفظ الفعل المضارع الذى يفيد التكرار والتجدد ، فقليل (يقبضن) ، ويكون مؤذى المعنى هكذا : إن الطيور صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة . أو يقال : إن النكتة في التعبير عن القبض بالفعل المضارع هى تصوير الحالة لأذهان المخاطبين وزيادة تعجبهم منها ، فإنهم حين تقول لهم انظروا إلى الطير صافات يعجبون من أمرها ، ثم يخف العجب حينما يقع في نفوسهم أنها عند بسط أجنحتها يكون قد دَعَمَها الهواء من تحتها كما يدعم الأجسام الرقيقة المنبسطة فيه ، فإذا نهتهاهم إلى أن الطير قد يقبض جناحيه في أثناء الطيران

ولا يقع نكون قد زدنا في عجبهم ، وهجنا من دهشتهم . والفعل المضارع بما فيه من معنى التجدد والحدوث والزمن يساعد على تصوير الحالة وإحضارها في ذهن المخاطب أكثر من الاسم ، يعرف ذلك من تفتن لأساليب العرب ، وتأمل في ملاحن كلامهم .

هذا وإن طيران الطيور لم يزل من المشكلات التي لم يحلها العلم الحديث على طول بابه في الاكتشافات ، والوقوف على أسرار خلق الكائنات . وقد عدوا من أبعد الأمور عن التعقل استمرار الطيور طائرة وأجنحتها مصفوفة موازية للأفق وهي لا تتحرك . وأعلن بعض علماء أوروبا منذ سنين أنه اكتشف الناموس الذي به يتمكن الطائر من الطيران ، لكنه لم ينشر تفصيل ما عرفه من أمر هذا الناموس . غير أن العلماء اتفقوا على أن السبب في استمرار الطيور طائرة يرجع إلى تقعر أجنحتها وتحديدها وكونها غير مسطحة ، وعلى أساس هذه النظرية بدأ النجاح في طيران الإنسان ، وأخذ الطيارون يصنعون أجنحة طياراتهم على أوضاع تحكي أجنحة الطيور وأوضاعها .

ربما يخطر في البال بعد طيران الإنسان أن طيران الطيور لم يعد محلا للعجب ، ولا دلالة فيه على القدرة التي أراد الله الاحتجاج بها على المشركين ، ولكني أقول إن طيران الإنسان قد يكون أكثر دلالة على قدرة الله تعالى من طيران الطير ، ولو كان الإنسان قد اهتدى في عصر النبوة إلى الطيران لَعَجَبَ الوحي المشركين من تخليق الطيارة في جو السماء ، كما عجبهم من سير الفلك على وجه الماء ، مدعاه نعمة على البشر ، وآية على قدرة الله . ولعمري إنه لا فرق بين طيران الطير وطيران الإنسان في أن كلا منهما أثر من آثار قدرة الله ، وعجيب صنعه في خلقه : طار الطائر بقوى ونواميس كامنة في تركيب جسمه وهي من الله ، وطار الإنسان بقوى عقله وعلمه ودقة ملاحظته ونواميس المادة التي استخدمها في الوصول إلى غرضه ، وكل هذه القوى والنواميس لم يكتسبها بجهده ، ولم يأت بها من بيت أبيه وجده ، ولا من عالم آخر غير عالمنا ، مخلوق لإله آخر غير إلهنا ، وإنا كل تلك النواميس والقوى والمواهب نعمة من الله ، وفيض من روح الله ، آمنا بالله وما أنزل إلينا من عند الله .

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَنْصُرُكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ^٥

قوله ((أمن هذا الذي الخ)) مقابل لقوله قبله (أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات) كأنه يقول أو لم ينظروا إلى عجيب صنع الله في خلق الطير فيعرفوا مبلغ قدرته تعالى على إزال العذاب بهم أم إنهم تعاملوا عن ذلك اعتدادا بأن لهم من غير الله قوة تحميهم إن أراد إهلاكهم ، وترزقهم إن أمسك الرزق عنهم ؛ فالقوة الحامية لهم في زعمهم هي جندهم وسلاحهم ، والقوة الرازقة هي آلتهم وأصنامهم ، وهذا هو شأن المشركين في زمن البعثة : كان صلى الله عليه وسلم إذا خوفهم البطشة الكبرى ذكروا له من منعتهم ، ونصرة جندهم . وإذا حذرهم القحط وأنه تعالى قادر على أن يحبس عنهم المطر ويمنع وسائل الرزق — أظهروا التجلد والاستغناء ، وزعموا أن أصنامهم تمدهم من صنوف الرزق بما شاءوا . فوبخهم الله على الأمرين ، وأبطل لهم كلا الزعمين : فلا الأعوان الذين لديهم بقادرين على أن يحوهم إن أراد هو إهلاكهم ، ولا الأصنام التي يعبدونها بالتي يمكنها أن ترزقهم إذا أراد إمساك الرزق عنهم .

والإشارة إلى الجند والأوثان بكلمة (هذا) الدالة على القرب مما يفيد في هذا المقام تحقير المشار إليهم وانحطاط شأنهم ، كما أن التعبير بذلك الدال على البعد يفيد التعظيم ورفعة الشأن أحيانا نحو قوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه) .

والجند العسكر والأعوان : معناه جمع ولفظه مفرد . وقوله في صفته ((ينصركم)) مراعى فيه جانب اللفظ لا المعنى . وكلمة ((دون)) مقبولة في الأصل عن [دون] ومعناه القرب . استعملت في المكان القريب . ومن كان في مكان قريب منك كان بالضرورة مغايرا لك . ومن ثم كثراستعمال دون أيضا بمعنى "غير" ؛ ففني من ينصركم ((من دون الرحمن)) من يقدر أن ينصركم نصرا واصلا إليكم من غير الرحمن . ويمكن أن نبقى (دون) على معناها الأصلي وهو المكان القريب ، ويكون حل المعنى هكذا : من يمكنه أن يمدكم بالنصر من مكان قريب من الله . ولا ريب أن كل الأمكنة قريبة منه تعالى : أي إنه تعالى عالم بالأمكنة وبمن حل فيها . وليس اقترابه منها كاقتراب بعض الأجسام من بعض ؛ فكل أحد إذن عاجز عن نصرة المشركين لأن الله ناظر إلى من ينصركم عن كسب متمكن من قهره آخذ بناصيته .

والاستفهام في قوله (أمن هذا الخ) ينتهي عند قوله (الرحمن) .

إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمِنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾

وقوله ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ بمنزلة الجواب لذلك الاستفهام: أي لا جند لهم في الواقع ونفس الأمر قادر على نصرتهم. فليس الكافرون إذن إلا قوما مغرورين مخدوعين، فتكون (إن) نافية بمعنى ليس. وكذا يقال في الاستفهام الآخر أعني قوله ﴿أمن هذا الذي يرزقكم﴾ فانه ينتهى عند قوله ﴿رزقه﴾. وقوله ﴿بل لجوا في عتو ونفور﴾ قام مقام الجواب: كأنه يقول كلا لا أحد غير الله يرزقهم. ولم يدعواهم لهذا الأمر الجلي بل تهادوا في تمردهم وكبرهم، وتباعدوا عن قبول الحق، واتباع النبي عليه السلام، وما أتى به من القول الصدق.

[كبه] على وجهه صرعه وقلبه. والرجل الذي انقلب يقال عنه إنه أكب. فالمكب إذن هو الذي يعتور مشيه عثار وسقوط من وقت إلى آخر، إما لضعف في بصره، أو وعورة في طريقه. وعكسه [السوى] وهو الذي يمشى مستوى القامة، ثابت القدم. و﴿أهدى﴾ أفعل تفضيل أي أشد هداية وأقرب وصولا إلى حيث يقصد.

والكلام تمثيل لحالة أولئك الذين وصفهم بالعتو والنفور في الآية السابقة مع مقارنتهم بالمؤمنين الذين أذعنوا للحق: قال عن الأولين إنهم تهادوا في تمردهم ونفورهم. والمتنرد إذا نفخ الشيطان في أنفه ضل وعمى عن القصد واعتسف الطريق اعتسافا. وهكذا كان شأن المشركين، فهم كالمشاي المكب الذي يقع على وجهه في كل خطوة يخطوها. أما المؤمنون فكانوا كالذي يمشى مستصب القامة في طريق لاجب: لا يصرخ فيه ولا عواثر. فأى القيلين أشد هداية، وأقرب وصولا إلى الغاية ؟ ؟

إذا كان حال المشركين على ما وُصف في الآية السابقة من ركوب التعاسيف والضلال عن طريق الحق كانوا ملومين أشد اللوم، وذلك لأنه تعالى خلق لهم الحواس والمشاعر، ومعهم بالعقل والمنطق، ويسر لهم وسائل النجاة، وأسباب الهداية، فلم ينتفعوا بشيء من ذلك، ولم يشكروا لله على هذه الوسائل والأسباب، فيستعملوها فيما خلقت لأجله، بل ضلوا وحادوا عن طريق الهدى، إلى طريق الردى.

فقله ((قل)) أى يا محمد فى تبكىت أولئك الذين عتوا وتوڑطوا فى الضلال: ألم تعلموا أن الله الذى يدعوكم للإيمان ((هو الذى أنشأكم)) خلقكم وجهزكم بأسباب الرشد والهداية من أسمع وأبصار وأفئدة أى قلوب. فلم صمتم عن المواعظ؟ وعميت عن الآيات؟ وأعرضتم عن النظر والتفكير؟ لا جرم أنكم تعلمون أن الله فاعل جميع ذلك، لكنكم قوم لا تشكرون، وبنعم الله تكفرون.

والقلة كثيرا ما تستعمل فى كلام العرب ويراد بها عدم الفعل ونفيه من أصله لا أنه يقع على وجه الدور. ومثل له الجاحظ فى كتاب الحيوان (جزء ٢ ص ٨٣) بقولك "فلان قليل الحياء" قال: وأنت لست تريد أن هناك حياء البتة، فهم يضعون [القليل] فى موضع [ليس] أى فى موضع النفى، ومنه الحديث الشريف "كان صلى الله عليه وسلم يقل اللغو" أى أنه لا يلتو أدا.

وأراد (بالأفئدة) العقول والمدارك؛ لأن العرب كما يسمون العضو ذا الشكل الصنوبرى قلبا وفؤادا يسمون العقل أعنى القوة المدركة قلبا وفؤادا أيضا، تسمية للحال باسم المحل، ذهابا منهم إلى أن العضو المذكور هو مقر العقل والإدراك. والوحى يخاطب العرب بما ألفوه واعادوه من أساليب التخاطب بينهم. وهذا كإنزال القرآن بأصل اللسان العربى لأجل أن يفهموا، ولو أنزل أعجميا لكان لهم الحجة. وقد اعترف لهم بذلك القرآن نفسه فى قوله تعالى: (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته: أأعجمى وعربى؟) أى أكون القرآن بلغة أعجمية ومحمد الذى أنزل عليه ذلك القرآن عربيا؟ أممكن هذا؟ فانظر كيف أن الله تعالى جعل لهم الحجة على فرض كون القرآن أعجميا. وقال صاحب الصحاح فى مادة [عبرى]: هو موضع تزعم العرب أنه من أرض الجنة نسبوا إليه كل شئ تعجبوا منه: ثوب عبقرى ويساط عبقرى لما فيه أصباغ وتقوش، وظلم عبقرى ورجل عبقرى، ومنه الحديث "فلم أر عبقريا يقرى قرينه" ثم خاطبهم الله بما تعارفوا فقال (وعبقرى حسان).

وقد أشرنا إلى هذا أيضا فى غير ما موضع من هذا التفسير اهتماما به، وحرصا على فائدته، ولكونه يحل مشا كل كثيرة فى تفسير معانى الوحى الإلهى. قال المفسر الطبرى فى قوله تعالى واصفا حال المعذب المخلد فى جهنم (ثم لا يموت فيها ولا يحيى) -: "قيل ذلك لأن العرب كانوا إذا وصفوا الرجل بوقوعه فى شدة شديدة قالوا [لا هو حى ولا هو ميت] فخاطبهم الله بالذى جرى به ذلك من كلامهم" انتهى قول الطبرى، وقد عزاه إلى طائفة من أهل العلم فى تفسير الآية المذكورة. وقال بعض العلماء فى قوله تعالى (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض): إنما نزل هذا فى العرب بناء على عادتهم، وهى أنهم كانوا إذا أخصبوا تحاربوا، وإلى هذا يشير قائلهم:

قوم إذا نبت الربيع بأرضهم نبتت عداوتهم مع البقل

قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

أمر تعالى نبيه في الآية السابقة أن يذكر المشركين بما أنعم عليهم من قوى النفس، ومشاعر الحس. ثم ارتقى في التذكير إلى ما هو الأصل في كل نعمة، وأساس كل موهبة: أعنى نعمة الخلق والإيجاد والتكاثر وتمهيد سبل الاستعمار أمام هؤلاء المخلوقين، فكانوا كثيرين متفرقين في جنبات الأرض.

[والذرة] الخلق. وهو أيضا الكثير: يقال "ذرا الشيء" إذا كثره. ومنه [الذرية] وقد تركت همزتها، ومعناها النسل الكثير. على أن الذرة إذا ذكر وأريد به المعنى الأول أعنى الخلق كان مرادا به المعنى الثانى وهو الكثرة أيضا، فليس معنى ذرا كم خلقكم فقط، بل هو أيضا مشوب بمعنى الكثرة، أى خلقكم وكثركم. ومناط الامتنان على البشر إنما هو التكاثر في الخلق لا الخلق المجرد، لأنه تعالى لو خلق البشر جماعات قليلة، ولم يودع نوعهم قوة النمو والتكاثر المفضى إلى الانتشار في جنبات الأرض وإلى إحيائها — لعدت عليهم العوادي: من قحط ووباء وزلزال، أو طاردهم الضواري: من ضبع وفمر وأسدرئبال، فهلكوا وبادوا. لكنه تعالى خلقهم وجعلهم يتكاثرون ويتوزعون قبائل وشعوبا تتسابق في مضمار الحياة، وتتبارى في استعمار الأرض، واستدراخ خيراتها، واستدفاع آفاتها. وهذا هو السر في قيام مدنيات الأمم، وارتقاء عمران العالم.

أما ختم الآية بقوله ((وإليه تحشرون)) فذلك لأن السورة كلها إنما أنزلت لإثبات الحشر، وتحقيق يوم الحساب، وحمل أهل مكة المكذبين على التصديق به، فقد أشار تعالى في فاتحة هذه السورة إلى أنه تعالى خلق موت البشر وحياتهم لأجل أن يختبر أمرهم ويعرف المطيع من العاصي منهم. ولا تكون نتيجة ذلك إلا إنابة المطيع ومجازاة العاصي في الدار الآخرة، فأول ما قرره السورة إذن إنما هو تنبيه المشركين إلى الإيمان بتلك الدار. ولما كان القوم مبصرين على مجرورها واستبعاد حصول العذاب فيها — تضمنت السورة ضربا من التذكير بنعم الله تعالى على المكذبين، وأنواعا من الحجج والبراهين على قدرته، وأنه تعالى لا يعسر عليه إيجاد دار لتعذيب الجرمين، والتنكيل بالمكذبين. فكانت كلما ذكر شيئا من تلك النعم، وعدد طائفة من هذه الحجج — عاد فقرر أمر الآخرة، أو نبه إليها تنبيها. وهكذا حتى آخر السورة.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ
وَأِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾

وإن آيات هذه السورة بل آيات سور القرآن بجملة كشدور الذهب وقد أُلِفَ بينها بلحام من المناسبات غاية في الدقة واللفظ . وأقرب ما نستشهد به على ذلك قوله تعالى هنا (وإليه تحشرون) فإن هذه الجملة لحام دقيق يصل بين الآيات . وبيان ذلك أنه تعالى لما أراد ختم السورة حسن أن يأتي على ذكر الموضوع الذي أشار إليه في أولها ، وهو إنكار المشركين للبعث والحساب ، وأنه لم يبق لهم عذر في النكول والجحود بعد ما مر من آيات الاحتجاج عليهم . فذكر بالموضوع إذ قال : (ويقولون متى هذا الوعد) ، لكنه كيف ينتقل إليه مع أن الكلام الذي قبله في صدد بيان قدرة الله على خلق البشر وتسليةهم بقوى المشاعر والحواس ؟ انتقل إليه على هذا الأسلوب : عبر عن الخلق بالذرة ، والذرة كما قلنا آنفاً فيه معنى النمو والتكاثر ، ففعل [ذرأكم] يشير إلى أن البشر خلقوا متكاثرين ، وانتشروا في جنبات الأرض ، وتفرقوا في أربعة أقطارها . هنا تتساءل النفس : هل في قدرة الله أن يجمع البشرية ليوم الحساب وهذا شأنهم من التفرق والانتشار في الأرض ؟ فقال تعالى في جواب هذا السؤال : (وإليه تحشرون) فهو قد مهد لذكر الحشر بذكر الذرة ، كما مهد بذكر الحشر لقوله (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟) أي إن هؤلاء المكذبين كانوا يسألون سؤال تعبت واستهزاء : متى يقع هذا الحشر والعذاب الذي تعدوننا به أيها المهددون — النبي وصحابته — إن كنتم صادقين في تهديدكم ، وتصفون الحقيقة في وعدكم لنا ووعدكم ؟

كان المشركون يسألون النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام عن يوم القيامة الذي كانوا يوعدونهم به . وسؤالهم هذا لم يكن إلا سخريه وتهكاً . ولكن الله تعالى أمر نبيه في قوله (قل إنما العلم الخ) أن يجيبهم على سؤالهم ، ويرد عليهم تهكمهم ، بما يفيد الجلد في القول ، والإعراض عن اللغو . وإن الرد عليهم بهذا الأسلوب لأشد نكايه ، وأبلغ في حملهم على الإصغاء والتدبر .

طلبوا أن يعرفوا الوقت الذي يحاسبون فيه على أعمالهم ، فأجيبوا بأنه ليست وظيفة النبي سوى تخويفكم عذاباً محقق الوقوع في ذلك اليوم . وإذا كان الأمر محققاً كان الواجب عليكم الإذعان والتصديق وترك العناد . أما معرفتكم زمن وقوع العذاب فهذا لا دخل له في التخويف والإنذار

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ

تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾

علمك بأن القصاص لا بد أن ينالك إذا أذنبت هو الذي يأخذ بحجزتك عن الوقوع في الذنب، فإذا تحققت القصاص بل إذا ظننته ظناً لاق بك أن ترعوى وتكف. أما تساؤلك عن الوقت الذي يقع فيه القصاص فلا يكون لا ثقاً بك، بل لا يكون من اللازم تعيينه لك؛ لأن التعيين لغو، والسؤال عنه مخرقة أو مشاغبة، أو خروج عن الصدد كما يقولون. وكان رؤساء المشركين يقصدون من وراء هذه المشاغبات تضليل أفكار العامة وضعفاء العقول من أهل مكة، فيتوهم هؤلاء أن العلم بوقت حلول العذاب شرط للتصديق به، فلا يعودون يخافون العذاب، ولا يؤمنون بيوم الحساب. فجاء الوحي راداً عليهم، مبطلا حججهم، مشيراً إلى أن التصديق بالعذاب لا يتوقف على معرفة الوقت الذي يقع فيه ذلك العذاب.

[ازدلفوا] و[تزلفوا] اقربوا بعد أن كانوا متباعدين. و[الزلفى] على وزن [حبل] بمعنى الازدلاف. ومثل الزلفى (زلفة) على وزان غرقة. والضمير في (رأوه) يرجع إلى اليوم المتحدث عنه. وكان الظاهر أن يضع الوصف موضع المصدر فيقول "فلما رأوه مزدلفاً" أى مقرباً منهم، لا (زلفة) أى اقتراباً. نعم هذا هو الأصل في التعبير، ولكن العدول إلى المصدر كثيراً ما أفاد المبالغة والتأكيد؛ فإن قولك "زيد عدل" أبلغ وأكده من قولك "زيد عادل". والتعبير بزلفة في الآية يفيد اشتداد قرب يوم القيامة، وأنه داني من مواقع أبصارهم.

و[سئ] مجهول ساء. والسوء القبح، يستعمل لازماً ومتعدياً. مثال اللازم أن يقال "ساء طبعك" و"ساءت أحوال البلاد" أى صارت سيئة قبيحة. ومثال المتعدي أن تقول "ساءنى منك أن تفعل كذا" و"ساء الناس ظلم حاكهم". وتقول في مجهوله سيئوا. وأصل الكلام في الآية هكذا "ساء قرب يوم القيامة وجوههم"، أى أن قربهم ألقى عليها سواد الحزن وآثارهم والقلق. ومعنى قوله (سيئت وجوه الذين كفروا) حصل لها ذلك. وخص الوجوه بالذكر لأن آثار الانفعالات النفسية من حزن وكبد وقلق إنما تظهر عليها. والذال في (تدعون) مشددة: من الدعاء بمعنى الطلب والنداء. وقرئ أيضاً (تدعون) بتخفيف الذال: أى تطلبون وتسالون: كما يقال "تذكرون وتذكرون" بتخفيف الذال وتشديدها. بقي أن فعل [دعا] بمعنى طلب وسأل يتعدى بنفسه لا بالباء: فيقال "دعا حصول يوم العذاب" ولا يقال "دعا بحصوله".

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ إِلِيمٍ ﴿٢٨﴾

ولكن من لاحظ أنه يقال "أهاب به وهنف به" بمعنى دعاه وناداه لا يشك في جواز أن يقال "دعا به" إذا ناداه وطلب حضوره . على أنه لا مانع من جعل (تدعون) المشددة في الآية من الأدعاء الذي اسم مصدره دعوى، وتعديته بالباء يساعد على ذلك، كأنه يقول: هذا هو يوم القيامة الذي كنتم أيها المشركون تدعون به ، أى تدعون بطلانه، وتزعمون أنه لا يأتيكم . فهذا أتم أولاء تروونه زلفة أى قريبا منكم .

والأفعال الثلاثة في هذه الآية وهي (رأوه)، و(سيئت)، و(قيل) — قد جاءت بلفظ الماضي مع أن المتبادر فيها أن تكون بلفظ المستقبل ؛ لأن يوم القيامة الذي ستقع فيه هذه الأفعال مستقبل لا ماضٍ، لكنه عدل بها إلى الماضي جريا على أسلوب من أساليب بلاغة اللغة العربية، وطريق من طرق التأكيد والمبالغة فيها . كأنه تعالى يقول : إن هذه الأمور الآتية محققة الوقوع بحيث يصح اعتبارها ماضية ، فأنا أخبر عنها بصيغة الماضي إشارة إلى ذلك . ومثل هذا التعبير كثير الوقوع في القرآن وفي كلام العرب . وقال أبو مسلم : معنى (فلما رأوه زلفة) فمتى رأوه زلفة .

أصل معنى [أرأيت] ^(١) الاستفهام عما إذا كان المخاطب رأى أو لم ير؟ ثم صار يستعمل في مقام [أخبرنى] .

كان النبي صلى الله عليه وسلم يخوف المشركين من عذاب يوم القيامة ، ويهددهم أحيانا بوقوع العذاب عليهم في دار الدنيا كما وقع بالأثم المكذبة قبلهم . فكانوا هم تارة يحاجونه ويستنزثون به ويشاغبون به ، وآونة باللغو واللغو يقاطعون . أما هو فكان لا يثنيه شيء عن النصيح لهم ، وتبليغ أمر ربه إليهم . وكان هذا الثبات منه في دعوتهم يبرهم ويخرج صدورهم ، فكانوا لا يجدون تفريجا لكربهم سوى الدعاء عليه بالهلاك ، أو أن يقول بعضهم لبعض : أطيلوا بالكم عليه فهو لا يلبث أن ينفذ عمره ، ويأتيه أجله ، فنستريح منه ومن لجاجته . فآله تعالى في هذه الآية يشدد عزيمته ، ويلقنه حجة ، ويقول له : قل لأولئك القوم : أخبروني إذا استجاب الله دعوتكم في صحابي فاماتنا ، أو رحمتنا فآثر موتنا إلى أجل — فماذا يفيدكم ذلك مادتم مقيمين على كفركم ؟ هل تحسبون موتنا ينجيكم من العذاب ؟ أو هل ثم من يدخلكم في جواره فتخلصوا من الهول ومناقشة الحساب ؟ ؟

(١) في مثل قوله تعالى (أرأيت إن كذب وتولى) ومثله في خطاب الجمع هنا (أرأيت إن أهلكني)

قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ۚ آمَنَّا بِهِ ۖ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسْتَعْلِمُونَ ۚ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ۖ فَنَ يَأْتِيَكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

وهذا طريق ثان من الطرق التي علمها الله نبيه في الرد على المشركين الذين كانوا يدعون عليه بالهلاك تارة ، ويتظنون موته نافدى الصبر تارة أخرى : فهو يقول له : قل لهم يا محمد إن هذا الإله الذى أدعوكم إلى عبادته والإيمان به رحيم بخلقه ؛ فهو تعالى لم ينزل عليكم الوحى عبثا ، ولم يرسلنى إليكم سدى ، بل فى ذلك كله مصالحة لكم ، وطريق لخلاصكم ، فكيف يجب دعوتكم فى ؛ فيهلكنى أنا ومن معى قبل أن تنفذ مشيئته ، وينتشر دينه ، وتعلو كلمته ، ولا سيما أنا قد آمنا به تعالى ؛ فلم نشرك به أحدا ، وتوكلنا عليه وحده ؛ فلم نطلب من غيره معونة ولا مددا . فهل إذا كنا كذلك يكون من الرحمة إهلاكنا ، وإجابة دعوتكم فينا ، وترك العالم على ما ترون من شيوع الكفر والفساد فيه ؟

كلا ! لا يتصور أن يهلكنا الله لأجل دعوتكم ، بل هو بالغ أمره فى خلقه . وستعلمون من منا الذى حاد عن طريق الهداية ، وابتعد عن مواقع الحق ابتعادا ظاهرا . وذلك حينما تم لنا الغلبة عليكم ، وتعلو كلمة الإسلام فى أرضكم .

(غورا) مصدر غار الماء نضب وذهب فى الأرض . وكان الظاهر أن يقول : إن أصبح ماؤكم غائرا . لكنه وصف بالمصدر للبالغة كما مر بيانه عند قوله (زلفة) . و (ماء معين) أى جار على وجه الأرض منظور بالعين ووزنه [مفعول] من عانه إذا نظره بعينه أو [فعل] من معن الماء فى جريه إذا طرد وتسلسل ، فكان ذلك أعون على نقائه وطهارته ، وتخليصه من الشوائب .

لم يشأ تعالى أن يتختم آيات التهديد والإنذار التى خاطب بها المشركين المكذبين بغير كلمة تذكير يستميل بها قلوبهم ، ويستلين عرائكهم ؛ فهو يمن عليهم بالماء الذى جعله يجرى تحت مواقع أبصارهم ، وعلى مقربة من متناول أيديهم . هذا الماء خرج من تحت الأرض وسال على ظاهرها بحض قدرة الله ومحكم تديره ؛ فلو أراد تعالى أن يفيض ذلك الماء ويذهب فى الأرض بحيث لا يمكنهم أن يتوصلوا إليه — فمن يقدر على إيجاد ماء لهم يسقى زروعهم ويطنئ عطشهم ؟ وقد مهد لذكر هذه النعمة بذكر الرحمة والتوكل فى الآية السابقة ، فقد ذكر فيها

أنه تعالى رحمن ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته يتوكلون في أمورهم وسائر تكاليف حياتهم عليه تعالى ؛ فمن رحمته تسهيل أمر السقيا عليهم بخلق الماء وسلكه ينابيع في الأرض ، ثم خروجه وجريانه على وجهها .

وكما أن الماء الذي هو مادة حياة البشر ، مثال من أمثلة رحمته تعالى — هو أيضا مثال مما يتوكل النبي والصحابه عليه تعالى في تناوله من مجاريه ، والانتفاع به عن كسب ؛ فلا جرم أن ينبيه المشركون إلى ذلك ؛ فيتوكلوا على الله تعالى أيضا في سائر مرافق حياتهم ، كما يتوكل النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ؛ فإن ذلك خير لهم لو كانوا يعلمون .